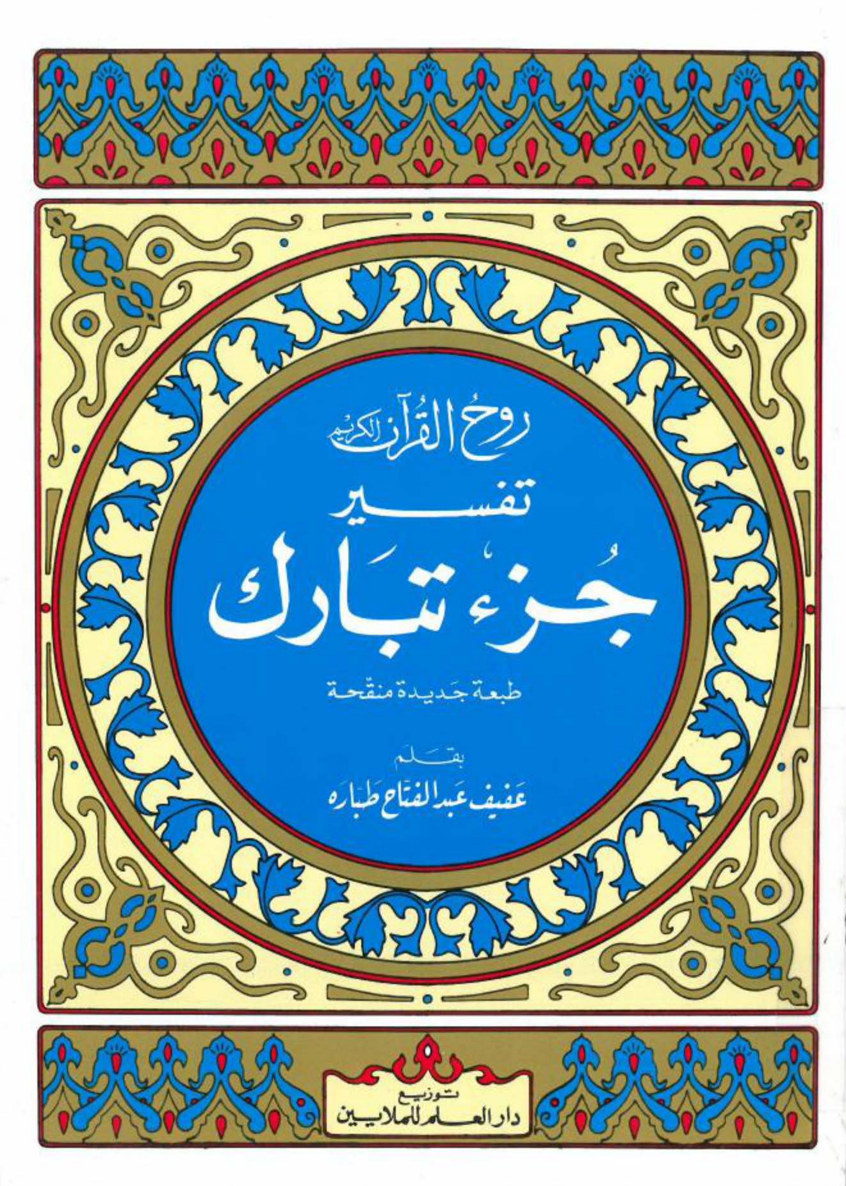
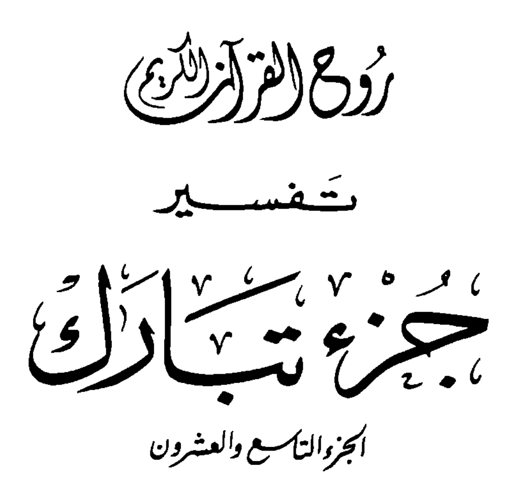

روحُ القُرآن الكريم
تفسير
جُزءُ تبَارك
طبعة جَديدة منقّحة
بقلم
عَفيف عَبد الفتّاح طَبارَه
توزيع
دار العلم للملايين

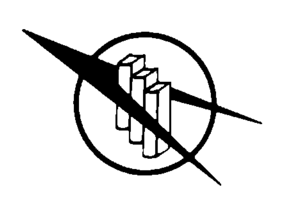


بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - بناية متكو - الطابق الثاني
هاتف : ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ - ٠١١٧٠١
فاكس : ٧٠١٦٥٧ (٠١١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com



الطبعة السابعة

أيلول / سبتمبر ٢٠٠٣



مقدمة

لفضيلة قاضي الشرع الشريف
الشيخ حسين يوسف غزال

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وعلى آله وصحبه ، وبعد :

يطوف المؤمن في رحاب القرآن متنقلاً في سوره وآياته ، بين محكم وخبر وعظة وعبر ، ووعد ووعيد وترغيب وترهيب ، إنه ﴿ لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ فيهلع قلبه لمواقع الإنذار الرهيب ، ثم يُسرّى عنه وتُشرق أساريره لدى سماعه الوعد الرفيق ، والتطمين الهادىء الرقيق من لدن رب العالمين ، فينتعش قلبه بمواقع البشرى تَرِدُ هنا وهناك تشرح صدره ، وتجعله يعيش في جو من البهجة والحبور والرضى والسرور ، فإذا قلبه في ربيع دائم ، ونضرة متصلة ، وشذى عبير لا ينقطع ، يبهج القلب ويذهب الكرب ، ويمسح عن الفؤاد غبرة الهم ، وعن الوجه آثار الغم ، فتشرق عليه نضرة النعيم ، ينطبق عليه دعاء النبي ﷺ : « اللهم إني أسألك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني وذهاب غمي » .

ولقد أتى على الناس حين من الدهر لم يهتدوا فيه إلى تفسير مبسّط لآي الذكر الحكيم ، ولم يقعوا على كتاب يشرح كلام الله على نحو يجمع بين السهولة والإبانة ، ويجافي التطويل المعقد الممل ، أو الاسترسال في مواضيع لا يستسيغها القارىء في هذا العصر .

ولما كان جزء تبارك مألوفاً لدى الكثيرين يتلوه الطلاب ويحفظونه باعتباره مقرراً عليهم في المراحل المتوسطة من التعليم ، كما يتلوه الناس في بيوتهم ، ويرددون آياته في مجالسهم ، لكن هذه الآيات يبقى الكثير منها مستعصياً على الفهم ، منغلقاً على الذهن ، يحتاج إلى إبانة وتوضيح .

ومن هنا انبرى المؤلف الأستاذ عفيف طبارة لهذا العمل الجليل في تفسير هذا الجزء « تبارك » مواصلاً جهده المشكور الذي قدمه للناس في جزء « عم » ، وكأني به وقد لمس ارتياحاً عاماً لديهم ، وإقبالاً سافراً على مطالعته ، وتعطشاً زائداً في الحصول عليه، والارتواء منه، فدفعه ذلك كله لأن يكمل ما كان بدأ به، معتمداً نفس النمط ، متوخياً السهولة في التأليف ، والانصراف إلى الجوهر من روح القرآن ومعانيه .

والمعروف أن الناس في هذه الأيام شغلتهم أموالهم وأهلوهم ، فقلما يجدون وقتاً يصرفونه في تفسير آيات القرآن الكريم ، فضلاً عن أن الذي يجد الوقت ويتوفر لديه التفسير ، يضيع في متاهات المفسرين ، وشروحاتهم الطائلة ، ولا يكاد يظفر بشيء يشفي الغلة .

ومن هنا كان عمل المؤلف يشكر عليه . أدرك بثاقب نظره ، أن الناس يتطلعون إلى تفسير يشبع رغباتهم ، ويلبي مطالبهم دون عناء أو جهد . فكانت مهمة المؤلف شاقة ، راعى أن يقدم للقارىء غذاءً روحياً مفيداً على طبق من الأسلوب ، يعتمد الرشاقة والغزارة ، وينفذ إلى روح الآيات ، فيظهر ما تنطوي عليه من خفاء ، ويقربها إلى الأذهان ، وكان عليه في سبيل ذلك أن يطوف في التفاسير المختلفة ليستخلص منها الثمار اليانعة ، ويجتني كل ما لذ وطاب ، ثم يقدم ذلك للقارىء على طبق من ذهب .

وإن الذين يعنون بالتفاسير يدركون ما لهذا التفسير من مكانة مرموقة ، وجهد مستفيض ، فلقد كانت الفكرة الواحدة تتطلب منه أن يعود إلى تفاسير عدة ، ليجلو غامضها ، ويوضح خفاءها ، ويكشف عن مراميها وأهدافها ، متعمداً أن يورد المعاني والأفكار التي تربط بين مقطع ومقطع في السورة ، أو حتى بين آية وآية ، ليقف عليها القارىء بطرب وحبور ، مستمداً منها غذاء لروحه ، وانفتاحاً لعقله ، وارتياحاً لمشاعره .

وإني أترك للقارىء أن يمضي في قراءة هذا التفسير ليلمس أن ما أشرنا إليه ما هو إلا جانب يسير مما سيقع عليه ، راجين الله سبحانه أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع به البلاد والعباد .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ

شرح المفردات

تبارك : تعالى وتعاظم وتقدّس عن كل ما سواه .

الملك : السلطان والقدرة .

ليبلوكم : ليختبركم ويمتحنكم .

أحسن عملاً : أصوبه وأخلصه .

العزيز : القوي الغالب على كل شيء .

طِباقاً : طبقات بعضها فوق بعض ، أو يوافق بعضها بعضاً .

الرحمن : من أسماء الله ، وهو الذي وسعت رحمته كل شيء .

تفاوت : اختلاف وتباين .

فطور : شقوق أو خلل .

ثم ارجع البصر كرّتين : أعد نظرك مرّة بعد أخرى ، والمراد بالتثنية : التكرار والكثرة .

خاسئاً : مبعداً عن الشيء الذي طلبه .

حسير : أدركه الإعياء .

ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ
عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ
ٱلۡمَصِيرُ ٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ
مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨
قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ
إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ
ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١ إِنَّ ٱلَّذِينَ

شرح المفردات

السماء الدنيا : السماء القريبة إلى الأرض .

بمصابيح : نجوم وكواكب مضيئة كالمصابيح .

رجوماً : جمع رجم وهو ما يرمى به .

أعتدنا : أعددنا وهيأنا .

السعير : من أسماء جهنم ، وهي النار الملتهبة .

شهيقاً : صوتاً منكراً .

تفور : تغلي غلياناً شديداً .

تميّز من الغيظ : تتقطع لشدة غيظها من الكفار .

فوج : جماعة .

إن أنتم : ما أنتم ، (إن حرف نفي مثل ما) .

فسُحقاً : فبعداً .

يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ
أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ
ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟
فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى
ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى
ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾

شرح المفردات

يخشون ربهم بالغيب : يخافون ربهم دون أن يروه .

أسرّوا قولكم : أخفوه .

بذات الصدور : بما تضمره القلوب .

اللطيف : من أسماء الله ، وهو العالم بدقائق الأمور ، الرفيق بعباده .

ذلولاً : سهلة طيّعة لكم .

مناكبها : جوانبها ونواحيها .

النشور : البعث من القبور يوم الحساب .

يخسف بكم الأرض : يغيبكم في باطنها .

تمور : تضطرب وتتحرك .

حاصباً : ريح فيها حصباء وهي الحصى .

كيف نذير : كيف كان عاقبة إنذاري لكم .

فكيف كان نكير : كيف كان إنكاري عليهم بتسليط العذاب عليهم .

سُورَةُ المُلك

ايضـاح و دروس

هذه السورة تبين الغاية من الموت والحياة، كما تلفت الأنظار إلى آثار قدرة الله الباهرة في الأرض وفي السماء ليكون تثبيتاً للإيمان بالله واليوم الآخر، كما تحذر الذين يعصون الله بعذاب النار يوم القيامة.

تُستَهَلُّ هذه السورة ببيان قدرة الله وسيطرته الكاملة على الكون:

﴿تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فلفظ ﴿تبارك﴾ وصف لعدة كمالات لله سبحانه، فمعناه: تقدّس وتعالى وتعاظم. وقيل: تبارك من البَرَكة وهي الكثرة في كل خير، أي زاد خيره وكثرت نعمته.

ومعنى ﴿بيده الملك﴾ كناية عن التصرف المطلق في هذه الكائنات والاستيلاء التام عليها. و ﴿قدير﴾ صفة مبالغة من القدرة، فالله وحده قادر على كل شيء يتصرف فيه حسب مشيئته وإرادته.

ثم تستعرض السورة بعض مظاهر قدرة الله:

﴿الذي خَلَقَ الْموتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَملاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُور﴾.

فالقرآن قدّم ذكر الموت لأن المخلوقات الحية كلها كانت في حكم العدم، ثم دخلت عليها الحياة، ثم يصيبها الموت، ثم تأتي بعد ذلك الحياة الآخرة كما قال سبحانه: ﴿وَكُنْتُم أَمْواتاً فَأَحْياكم ثُمَّ يُميتكم ثُمَّ يُحييكم﴾ البقرة: ٢٨.

والغـاية من خلق الإنسـان على هـذه الأرض هي اختبـاره وامتحـانـه بصنوف الشر والخير ليظهر من أحسن عملاً وأخلصه ﴿لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُم أحْسَنُ عَمَلاً﴾ هذا المفهوم إذا وعاه الناس أثار فيهم التنافس في الأعمال الحسنة وجنبهم دواعي الشر.

وينتقل القرآن إلى بيان قدرة اللّه في خلقه للسماء:

﴿الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰواتٍ طِبَاقاً ما تَرَى في خَلْقِ الرَّحمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾.

فاللّه سبحانه خلق سبع سماوات ﴿طِبَاقاً﴾ أي بعضها فوق بعض.

وحقيقة هذه السماوات السبع مجهولة لدينا، ولكننا مُلزمون بأن نؤمن بذلك ونفوض العلم في حقيقتها إلى اللّه سبحانه، ولعل الزمن يكشف لنا أسرار ذلك بما يكتشف الإنسان من خفايا الفضاء. ولا بد من الإشارة إلى أن القرآن حين يذكر خلق السماوات والأرض لا يقصد إلى غايات علمية، وإنما يدعو إلى التأمل في خلقها، ليصل الإنسان بذلك إلى الإيمان بخالقها، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر من هذه السورة ﴿إنَّ في السَّموات وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمنين﴾.

والمراد من قوله سبحانه: ﴿مَا تَرَى في خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوتٍ﴾ أي لا ترى في ما خلق اللّه أي اختلاف وتباين واضطراب في الخِلْقة، وقد جاءت بحوث علماء الكائنات الحية، وعلماء المادة وقوانينها موافقة لمضمون هذه الآية، فقالوا إن العالم جميعه من أصغر ذرة، إلى الخلية التي لا تُرى بالعين المجردة، إلى أكبر جرم في السماء خاضع لقوانين في غاية الدقة والإحكام لا يعتريها أي خلل. ومعنى قوله سبحانه: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ

﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أي رد بصرك إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيباً او نقصاً أو خللاً؟!

ويتابع القرآن قوله:

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

والتثنية في كَرَّتين يُرادُ بها مرات كثيرة، وقيل إن المثنى على ظاهره، أي مرة بعد أخرى، فمهما أمعنت النظر لتلتمس أي خلل سيرتد إليك نظرك ﴿خَاسِئاً﴾ أي ذليلاً مبعداً عن العثور على أي خلل ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ وهو كليل متعب من شدة التحديق الذي لا يرى من خلاله نقصاً ولا عيباً.

هذا المفهوم القرآني عن كمال خلق اللّٰه لم يظهر جليًّا كما ظهر في هذا العصر بواسطة ما استحدثه الإنسان من آلات الرؤية كـ «الميكروسكوب الألكتروني» الذي يكبر الأشياء ٩٠٠ ألف مرة فما فوق، وكذلك (التلسكوب) الذي يقرب الأبعاد ملايين المرات، فرأى العلماء من خلالهما ما أدهشهم وزادهم إيماناً بالخالق، وما كانت كثرة التحديق تريهم أي خلل في مشاهداتهم، بل كانت كثرة التحديق تزيدهم تعباً وإرهاقاً.

ثم يوجه القرآن الأنظار إلى جمال السماء وما توحي من إيمان بخالقها:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

فمشهد النجوم والكواكب في السماء في الليلة الظلماء له سحر وروعة وجمال، يظهر ذلك أوضح لأهل الأرياف، وسكان الصحاري، وراكبي البحار عندما تكون السماء صافية، خالية من الغيوم، وهذه السماء جعلها اللّٰه

موطن الشُّهب لرجم الشياطين. وقد كان كهنة العرب يزعمون أن لهم اتصالاً بالملأ الأعلى بواسطة الشياطين الذين ينقلون إليهم أنباء ما يُسجَّل في الملأ الأعلى، فنفى القرآن ذلك مبيناً: إن الشياطين لا تستطيع أن تصل إلى هذا الملأ دون أن تُرجم، وإذا كان هذا مصيرها في الدنيا، فإنه سبحانه هيأ لها عذاب النار في الآخرة.

ويبين القرآن ما أعد الله للكافرين من عذاب في الآخرة:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ. تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

فالكفار لهم عذاب جهنم وبئس هذا المصير الذي ينتهون إليه، فحين يُطرحون في جهنم تستقبلهم في غيظ وضيق شديد، ويسمعون لها ﴿شَهِيقاً﴾ أي صوتاً قبيحاً منكراً لشدة توقدها وغليانها ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ وهي تغلي بهم كما يغلي القِدْر بما فيه، والفوران: شدة الغليان ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي توشك من شدة غضبها عليهم أن تتقطع وتتفرق وينفصل بعضها عن بعض ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ كلما ألقي في النار جماعة من الكافرين ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ سألهم ملائكة العذاب بطريق التوبيخ والتقريع ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي ألم يأتكم رسول من الله يحذركم ويخوفكم من عذابه، حينئذٍ يجيب الكفار بما يذكره القرآن:

﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ في ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾.

لقد اعترفوا بأنهم كذبوا رسل الله وأنكروا نزول الوحي عليهم، بل اتهموا هؤلاء الرسل بأنهم في بُعد كبير عن الحق والصواب.

إن اعترافهم هذا، هو شهادة بعدالة اللّه، فهو سبحانه لا يُعذب قوماً إلّا بعد إرساله الرسل، وقد جاء في القرآن: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ الإسراء: ١٥.

ويتابع الكفار اعترافهم فيذكرون السبب الذي أدى بهم إلى عذاب النار:

﴿وَقَالُوا: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ مَا كُنَّا في أَصْحَابِ السَّعير. فاعْتَرفوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

فالكفار يقولون للملائكة الموكلين بجهنم: لو كنا نسمع سماع من يطلب الحق ويأخذ به، أو كنا نعقل عقل من يميّز بين الهدى والضلال لآمنا به، ولما أصبحنا في عِداد أهل جهنم، وهم بقولهم هذا أقروا بذنبهم ﴿فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فبعداً لأهل النار من رحمة اللّه.

هؤلاء الكفار لو حكّموا عقولهم لما وصلوا إلى هذه النهاية التعيسة، وهذه إشادة من القرآن بالعقل لأنه مناط التكليف بالشرائع الإلّهية، والعقل السليم يقود صاحبه إلى الإيمان باللّه والسير بمقتضى شريعته.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان مصير المؤمنين في الآخرة فيقول:

﴿إنَّ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كبيرٌ﴾.

والخشية خوف ممزوج بتعظيم وإجلال، وخشية اللّه (بالغيب) هي خشيته وهم لم يروه فيؤمنون به ويقبلون على طاعته، أو يخافون عذاب اللّه حال كون العذاب غائباً عنهم، أو يخافون ربهم في خلوتهم وهم غائبون عن أعين الناس، كل هذه المعاني يحتملها نص القرآن، هؤلاء لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير وهو الجنة، وكيف لا يخافون ربهم وهو يعلم سرّهم

وجهرهم:

﴿وأسِرُّوا قَوْلَكُمْ أو اجْهَروا به إنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

فقد كان بعض الكفار يتكلمون فيما بينهم بأشياء ضد النبي ﷺ، فقال بعضهم لبعض: تحدّثوا سرّاً حتى لا يسمع رب محمد ما تقولون، فخاطبهم اللّه سبحانه: تحدّثوا سرّاً أو جهراً فإن اللّه يعلم ما بضمائركم قبل أن تفصح عنه ألسنتكم.

هذا المفهوم الذي يعلنه القرآن عن علم اللّه بأسرار الإنسان وما يضمره في قلبه من شأنه أن يغرس خشية اللّه في قلب الإنسان ويردعه عن كل ذنب؛ فمهما تستر الإنسان في إجرامه فاللّه لا تخفى عليه خافية.

ثم يقدم القرآن دليلاً منطقياً عن إحاطة علم اللّه بالأشياء: ﴿ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطيفُ الخبير﴾ فاللّه سبحانه الذي خلق الكائنات وأبدعها، هو لاريب أعلم بها، وهذا دليل استدلالي منطقي مدهش عن إحاطة علم اللّه بالأشياء، فالذي يصنع سيارة أو ساعة يعرف دقائقها وكلّ قطعة فيها والدور الذي تقوم به، واللّه سبحانه الذي خلق الكائنات عالم بها جميعاً لأنه خالقها، كما أنه سبحانه ﴿اللطيف الخبير﴾ أي العالم بدقائق الأشياء، الخبير بحقائقها.

وبعد ذلك ينتقل القرآن إلى بيان منّته ونعمته على خلقه:

﴿هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا في مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ فالأرض وصفها اللّه (بالذَّلُول) ومعناه المنقاد الذي يذل لك، ومنه يقال: دابة ذلول، أي سهلة الانقياد. وانقياد الأرض للإنسان ظاهرة طبيعية في كافة العصور، ولم تظهر جلية كما ظهرت في هذا العصر، حيث

سخّرها الإنسان لمنافعه، فلم يدع نوعاً من أنواع الاستفادة من خيراتها إلاّ سلكه، فتسخير البشر الأرض لمنافعهم هو مصداق لامتنان الله سبحانه بجعل الأرض ذلولاً لهم.

والمراد من قوله سبحانه: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ أي امشوا في جوانبها وأطرافها وجبالها، وكلوا من رزق الله الذي أخرجه لكم من الأرض، هذا التوجيه القرآني فيه حثٌّ للناس على السعي في الأرض لكسب معيشتهم وعدم الركون إلى التواكل والكسل. ومن جهة أخرى فإن التعبير القرآني بـ (رزق الله) فيه تأكيد على أن مقومات المعيشة يجب أن تكون متوفرة لجميع الناس فليس لأحد أن يحتكرها من دون الناس. ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورِ﴾ وإلى الله بعثكم من قبوركم أحياء يوم القيامة للحساب.

وبعد أن بيّن الله للناس نعمته عليهم، عاد يحذرهم من عاقبة كفرهم، فبعد أن تكون الأرض ذلولاً صالحة للإنتفاع منها قد تصبح كالفرس الجموح فتضطرب اضطراب خسف وزلزال فتبتلعهم، يقول سبحانه:

﴿ءَأَمِنْتُم مَنْ في السماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فإذا هِيَ تَمُورُ﴾.

أي أأمنتم فلم تخافوا من في السماء[1] قدرته وسلطانه وعرشه وهو الله سبحانه وخص السماء بالذكر وإن عم ملكه الأرض تنبيهاً على أن الإلٰه الحقيقي هو الذي تنفذ قدرته في السماء لا من يعظمون من أصنام على الأرض، ويحتمل أن يكون المعنى: أأمنتم خالق من في السماء ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ بأن تغور بهم وتغيبهم فيها ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ تضطرب

---

(١) إن الله منزه عن المكان وقد جاء في القرآن: ﴿وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه﴾ الزخرف: ٨٤ أي أن مشيئته وحكمه نافذان فيهما وسلطانه وقهره غالبان عليهما.

ذهاباً ومجيئاً .

والعذاب لا يقتصر على خسف الأرض بل هناك عذاب آخر:

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ في السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ .

أي أم أمنتم أن اللّٰه تعالى بسلطانه لن يرسل عليكم ﴿حَاصِباً﴾ أي حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط، أو المراد بالحاصب الريح الشديدة التي تقلع الحصباء لشدتها ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ فسوف يظهر لكم أيها الكافرون حقيقة إنذاري لكم حين تعاينون العذاب.

ويقدم القرآن مثالاً لما أصاب الأمم السابقة بسبب تكذيبها لرسلها:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم فكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ .

أي ولقد كذّب الذين عاشوا قبل قومك يا محمد رسلهم، فكيف كان إنكاري عليهم بإنزال العذاب فيهم، وإن آثار الدمار والخراب تروي قصة هذا العذاب.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ
فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ
إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ
رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ
أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ
وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ

شـــرح المفـردَات

صافات : باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن .

ويقبضن : يضممن أجنحتهن .

ما يمسكهن : ما يمنعهن من السقوط .

من دون الرحمن : من غير الرحمن .

إن الكافرون : إن : حرف نفي بمعنى ما .

غرور : خداع وطمع بالباطل .

أمسك رزقه : منع رزقه .

لجّوا : تمادوا واستمروا .

في عتوّ : في طغيان .

نفور : بُعْدٍ عن الحق .

يمشي مكبًّا على وجهه : يمشي وهو لا يبصر ما بين يديه فيسقط على وجهه .

يمشي سويًّا : يمشي قائماً معتدلاً يبصر طريقه بوضوح .

صراط : طريق .

أنشأكم : خلقكم .

الأفئدة : هي القلوب ، والمراد بها هنا العقول .

هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا
ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا
ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ
أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ
وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ
إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

شَرح المفردَات

ذرأكم : خلقكم .

تُحشرون : تجمعون يوم القيامة .

الوعد : أي يوم القيامة .

نذير : مبلّغ ومخوّف .

زُلْفَة : قريباً منهم .

سيئت وجوه : ظهر عليها السوء والحزن والكآبة .

تدّعون : تطلبونه وتستعجلونه من عذاب الله .

ارأيتم : اخبروني .

يجير : يمنع وينقذ .

توكّلنا : فوضنا أمرنا إلى الله سبحانه .

أصبح ماؤكم غوراً : اصبح ماؤكم غائراً في الارض .

معين : ظاهر وجارٍ على سطح الارض .

تابع سُورَة المُلك

وبعد آيات الوعيد للكافرين تنتقل الآيات لافتة الفكر إلى التأمل والنظر في قدرة الله المتمثلة في خلق الطير:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إلى الطير[١] فَوقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلا الرَّحْمٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ بَصير﴾.

أي أَلَمْ يروا يا محمد الطير تحلق فوقهم ﴿صَافَّات﴾، أي باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها، والطيور تبسط أجنحتها وتركب متن الهواء. ومعنى ﴿يقبضن﴾ يضممن أجنحتهن إذا ضربن بها جنوبهن بعد البسط، ويكون ذلك من حين إلى آخر حين ترغب في الهبوط أو الصعود ﴿إِنَّه بِكُلِّ شيء بَصِيرٌ﴾ إن الله بكل شيء ذو بصر وخبرة لا يدخل في تدبيره خلل.

والطير أشكال كثيرة منها الوحشي والأليف، ومنها الجميل المنظر، ومنها ما يغرِّد أو يصدح، ومنها ما ينعق، ومنها طويل العنق والمنقار، مع اختلاف الريش وتنوع الألوان وتعاريجها البديعة، عجائب تدل على قدرة الله الباهرة.

وبعد هذا يخاطب الكافرين موبخاً إياهم على تصرفاتهم:

﴿أَمْ مَنْ هَـذَا الذي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُون الرحمٰن؟! إن الكافرونَ إلاَّ في غُرُورٍ. أَمْ مَنْ هَذَا الذي يَرْزُقُكم إنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ؟ بَلْ لَجُّوا في عُتُوٍّ ونُفُور﴾.

فالنبي ﷺ كان إذا خَوَّف الكفار من عذاب الله ذكروا له قوتهم،

(١) تتجلى الطيور عامة بخصائص: منها خفة الوزن ومتانة البناء وعلو كفاءة القلب ودورة الدم وجهاز التنفس ودقة اتزانها وانسياب أجسامها وهي خصائص أودعها الله فيها لتحفظها في الهواء حين تبسط أجنحتها أو تقبضها

واعتمادهم على نصرة جندهم ، فقال سبحانه : من هؤلاء الجنود الذين ادعيتم أنهم ينصرونكم ويمنعون عنكم عذاب الله ﴿إِنِ الكَافِرُونَ إلَّا في غُرُورٍ﴾ أي ما الكافرون بالله إلاّ في خداع وطمع في الباطل لاعتقادهم أن جندهم تمنع عنهم عذاب الله ﴿أمَّنْ هَذَا الّذي يَرْزُقُكُم إنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ أي من هذا الذي يرزقكم إن منع الله عنكم أسباب الرزق من الأمطار وغيرها ﴿بَلْ لَجُّوا في عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ بل استمروا وتمادوا في طغيانهم وبُعد عن الحق.

وبعد أن اتضح الحق فمن هو أحسن حالاً؟ المؤمن أم الكافر:

﴿أفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

فالمكب هو الساقط على وجهه أو المتعثر في مشيته، إما لأنه لا يرى أمامه، أو بسبب وعورة الطريق، وهكذا حال الكافر يمشي متعثراً لا يأمن الزلل لأنه اختار طريقاً معوجاً بما فيه من ضلال وبُعْدٍ عن الحق، أما المؤمن فيمشي (سوياً) أي مستوي القامة ثابت القدم يبصر طريقه، سالماً من السقوط يمشي على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، لأنه اختار طريق الإيمان والهدى والحق.

ويبين الله نعمته على الإنسان، فهو الذي خلقه وأعطاه نعمة السمع والبصر والعقل، وأن القليل من الناس يشكرون الله على هذه النعم:

﴿قُلْ هُوَ الَّذي أَنْشَأَكم وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَة قليلاً ما تَشكرون﴾.

فالترتيب الذي جاءت به هذه الآية ابتداءً من السمع ثم البصر ثم الأفئدة هو ترتيب ممارسة هذه الحواس. فحاسة السمع تبدأ مبكرة جدًّا في حياة الطفل في الأسابيع القليلة الأولى، وأما البصر فيبدأ في الشهر الثالث،

أما الفؤاد وهو الإدراك والتمييز فلا يتم إلّا بعد ذلك.

ومن نعم اللّه أيضاً على الإنسان الخلق والتكاثر:

﴿قُلْ هُوَ الذي ذَرَأَكُمْ في الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ذرأ اللّه الخلق: خلقهم على وجه الاختراع وكثّرهم، ومناط الامتنان على البشر إنما هو الخلق والتكاثر، فلو أنه تعالى خلق البشر ولم يُودع في نوعهم خاصية النمو والتكاثر لكانوا عرضة للزوال عند أية جائحة من جوائح الزمن، كما أن المرجع بعد الموت هو إلى اللّه وحده ﴿وإليه تحشرون﴾ والحشر جمع الناس يوم القيامة للحساب.

ويسأل الكفار عن موعد البعث والحساب فيجيب القرآن بأن العلم بذلك يختص باللّه وحده وأن وظيفة النبي هي إنذارهم عاقبة كفرهم وبيان شريعة اللّه:

﴿ويقُولُونَ: مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُم صَادِقِين؟ قُلْ: إِنَّمَا العِلْمُ عِنْد اللّهِ، وإِنَّمَا أَنَا نَذيرٌ مُبِينٌ﴾.

ثم يبين اللّه حال الكافرين حين حلول البعث والحساب:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الذينَ كَفَروا، وَقِيلَ: هَذَا الذي كُنْتُم بِهِ تَدَّعُون﴾ فالكفار حين يرون العذاب (زُلفة) أي قريباً منهم يسوؤهم ذلك وتعلو وجوههم الكآبة، وتغشاها الذلة، فيقال لهم عندئذٍ توبيخاً لتصرفاتهم: هذا العذاب الذي كنتم ﴿به تدّعون﴾ أي تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه إنكاراً واستهزاءً.

ويتمنى الكفار أن يهلك النبي ومن آمن معه حتى يستريحوا من هذه الدعوة، فيأمر اللّه نبيه ﷺ بأن يرد على تمنياتهم بقوله:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمنَا فَمَنْ يُجِيرُ الكافرينَ مِنْ عَذَابٍ أَليم﴾ أي قل لهم أيها النبي: أخبروني إن أماتني اللّه ومن معي من المؤمنين كما تتمنون أو رحمنا فأخّر آجالنا وعافانا من عذابه ﴿فَمَنْ يُجيرُ الكافرينَ مِنْ عَذَابٍ أليم﴾ فمن يحمي الكافرين من عذاب أليم استحقوه بكفرهم. فسواء عذبنا اللّه أو رحمنا فلا مناص لكم من عذابه الأليم يوم القيامة.

كما يأمر اللّه الرسول ﷺ بأن يقول للكافرين:

﴿قُلْ: هُوَ الرَّحمٰنُ آمَنَّا بِهِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾.

أي قل لهم يا محمد: إن الله الذي عمت رحمته كل شيء صدّقنا به وحده، وفوضنا إليه أمورنا، فستعلمون أيها الكفار إذا نزل العذاب بكم أي الفريقين في ضلال ظاهر واضح.

وأخيراً يختم اللّه هذه السورة بهذه الآية التي تخاطب الكافرين وتبين فضل اللّه عليهم، فهذا الماء الذي هو مصدر الحياة على هذه الأرض إنه يجري تحت مواقع أبصارهم وعلى مقربة من متناول أيديهم:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

أي قل لهم أيها الرسول: أخبروني إن أصبح ماؤكم غائراً في الأرض فلا سبيل لكم للوصول إليه، فمن غير الله يأتيكم بماء جارٍ ظاهر يصل إليه كل من أراده.

فما أعظم نعمة الله على الناس، وما أقبح كفرهم وجحودهم بخالقهم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ
لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ
﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ
﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ

شرح المفردات

والقلم : الواو للقسم ، والقلم أداة الكتابة .

يسطرون : يكتبون .

بِنِعْمَةِ ربك : ما أنعم الله عليك من النبوة .

لأجراً غير ممنون : ثواباً غير مقطوع ولا منقوص ، أو غير ممنون به عليك .

لعلى خُلُقٍ عظيم : لعلى أدب عظيم ، والخلق ما يُلزم به الإنسان نفسه من الآداب .

المفتون : المجنون .

وَدُّوا لو تدهن فيدهنون : تمنّوا لو تلين في دينك فيلينون لك .

حَلَّاف : كثير الحلف بالباطل .

مَهين : حقير الرأي ، وقليل النظر .

هَمَّازٍ : عيّاب يذكر عيوب الناس ويغتابهم .

مشّاءٍ بنميم : يمشي بين الناس بالنميمة وهي نقل الحديث من قوم إلى قوم للإفساد بينهم .

لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟

شرح المفردات

منّاع للخير : بخيل المال والخير .

مُعْتَدٍ : ظلوم يتعدى الحق .

أثيم : كثير الخطايا والذنوب .

عُتُلٍّ : فظ جافي الطبع .

زنيم : المجهول الأب ، وقيل الشرير اللئيم .

آياتنا : آيات القرآن الكريم .

أساطير الأولين : أكاذيب الأولين وأقاصيصهم .

سنسِمُه : سنجعل له سمة أي علامة .

الخرطوم : الأنف .

بلوناهم : امتحناهم واختبرناهم .

الجنّة : كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض .

ليصرِمُنها : يقطعون ثمارها .

مصبحين : وقت الصباح .

ولا يستثنون : لا يتركون شيئاً للفقراء .

طاف عليها طائف من ربك : أحاط بها وأصابها عذاب من ربك .

كالصريم : كالليل المظلم ، أي صارت الجنة سوداء لاحتراقها .

مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟
وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾
وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟
سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن

شرح المفردات

تنادوا مصبحين : نادى بعضهم بعضاً في الصباح .

اغدوا : اذهبوا باكراً .

حرثكم : زرعكم .

صارمين : قاصدين قطف ثماره .

يتخافتون : يتحدثون بصوت منخفض .

وغدوْا : بكّروا بالذهاب .

على حَرْدٍ : على قصد وبخل مع حدّة الغضب .

لضالون : لتائهون ، أي لم نهتد إلى البستان .

أوسطهم : أرفعهم وأفضلهم رأياً .

لولا تُسبّحون : هلّا تستغفرون الله من فعلكم وخبث نيتكم .

سبحان ربنا : ننزهك يا رب ونبرئك من الظلم .

يتلاومون : يلوم بعضهم بعضاً .

يا ويلنا : دعاء بالهلاك ولكنها هنا يقصد بها إظهار الندم والحسرة .

طاغين : عاصين ومتجاوزين الحد في الظلم .

عسى ربنا : نرجو ربنا .

يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

سُورَةُ الْقَلَم

ايضـــاح و دروس

هذه السورة تتضمن الدفاع عن رسول الله والثناء عليه وتقوية عزيمته في تبليغ رسالة الله، كما تحذر أهل مكة من عاقبة الطغيان معطية المثل بما جرى لأصحاب البستان من احتراق بستانهم جزاء حرمانهم حق الفقراء من ثمره.

افتتح الله هذه السورة بحرف (ن) الذي هو أحد الحروف الأبجدية، كما افتتح الله بعض السور بغيره من الحروف. وقد قيل في تفسير هذه الحروف في أوائل السور أقوال كثيرة نذكر أحدها وهو: أنه سبحانه ذكر الحروف في القرآن لتنبيه الكفار إلى أن القرآن أُلفت كلماته من جنس ما تؤلف منه كلماتهم فهو قرآن عربي، فلم ينزل القرآن بكلمات غريبة عنهم ومع هذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فعجزهم هذا دليل على أن القرآن ليس من صنع البشر بل هو من عند الله، إذن فلماذا لا يؤمنون به؟!

ثم يقسم الله في هذه السورة بالقلم والكتابة: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ والقسم بالشيء يدل على شرف المقسم به وعلو منزلته وتعدّد منافعه.

فالله سبحانه أقسم بالقلم لما فيه من الفوائد والنعم على الإنسان، فبواسطة القلم دُونت الشرائع والعلوم والمعارف، وقد أقسم الله بهذه الأشياء المدونة أيضاً بعد القسم بالقلم، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي أقسم

بما يكتبون، هذه الكتابة تعدّدت وسائطها فكان منهـا القلم والآلة الكـاتبة، وآلات الطباعة، ولا ريب أن هذه الحضـارة وما بلغتـه من رقي إنما هـو من نتائج الطباعة وتطورها التي نقلت نتـاج الفكر والثقافة والعلم على صفحات الصحف والمجلات والكتب إلى مئات الملايين من البشر. فمنذ أربعة عشر قرناً ـ عهد نزول القرآن ـ كان العرب في أمية عمياء ـ باستثنـاء القليل ـ ولم تكن المدارس والجامعات معروفة فيما بينهم، وكان النبي محمد ﷺ ـ لحكمة يريدها اللّه ـ أميّاً لا يعرف القراءة والكتابة. هذا ولم يتوصل العَالَم في ذلك العصر إلى اختراع آلات الـطباعـة والورق. فـالقـسم بما (يسـطرون) الذي استبانت عظمته وأهميته في هذا العصر لهو نبوءة علمية للقرآن تضـاف إلى نبوآته الكثيرة في كل ميدان.

ولا ريب أن القسم بـالقلم والكتابـة إيحاء للمؤمنين ليهتمـوا بالقـراءة والكتابة التي هي أساس العلم والتعلم.

وبعد ذلك يخاطب اللّه رسوله محمداً نافياً عنه تهمة الجنون التي رماه المشركون بها: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فهنا يثبت اللّه نعمتـه على نبيه في تعبير يُوحي بالقـربى والمودة حين يضيفـه سبحانـه إلى ذاته بقـوله: (ربك) كما ينفي سبحـانه تلك الصفـة المفتراة عليـه وهي: الجنون، التي لا تجتمع مع نعمة اللّه عليه بالنبوة وغيرها. ونعمة اللّه على نبيه كانت ظاهرة فيه من نواحٍ شتى: من العقلِ الكامـل، والسيرة العـطرة، والبراءة من كـل عيب، والاتصاف بكل مكرمة.

ولعل تهمة الجنون كانت تؤلم نفس النبي ﷺ وتؤذي شعـوره، فتأتي الآية التاليـة تواسيـه: ﴿وإِنَّ لَكَ لأَجْـراً غَيْرَ مَمْنُـونٍ﴾، فالنبـوة التي يزعم الكافرون بأنها جنون يجب أن لا تثني عزيمتك عن إرشاد قومك فـإن ثواب

قيامك بالهداية هو ثواب دائم غير مقطوع وغير ممنون به عليك.

ثم تجيء هذه الشهادة من اللّه بخلقه العظيم وهي ثناء ما بعده ثناء لهذا الخلق العظيم الذي اعترف به أعداؤه، كما أن في شهادة اللّه له بذلك رداً مفحماً على من اتهمه بالجنون، فالمجنون لا يتصف بالخلق العظيم، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي إنك على أدب عظيم وهو أدب القرآن، ولقد تخلّق النبي ﷺ بأدب القرآن، وقالت عنه زوجته عائشة: «وكان خلق رسول اللّه القرآن» وإن مبادىء الأخلاق في القرآن في القمة من السمو كما شهد بذلك بعض علماء الغرب[1].

وبعد هذا الثناء من اللّه لنبيه يَرُدُّ سبحانه على كفار مكة الذين وصفوا نبيه بالجنون والضلال مطمئناً له ومهدداً لهم:

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ. بِأَيِّكُمُ المفْتُونُ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ﴾.

أي سترى أيها النبي وسيرى أولئك الكفار عند انتصارك عليهم ﴿بِأَيِّكُم الْمَفْتُون﴾ أي بأيكم الجنون أأنت أم هم، إن ربك هو أعلم بالذين حادوا عن طريق الهداية والخير وهو أعلم بالمهتدين الذين اهتدوا بدين اللّه.

ثم ينهى اللّه نبيه عن إطاعة المكذبين ويصف تمنياتهم الضالة:

﴿فَلَا تُطِعِ المكذِّبِينَ. وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

والمداهنة: هي الملاينة والمصانعة والمداراة، أي ودّ هؤلاء

---

(١) يقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: «إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها».

المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون لآلهتهم فيلينون لك في عبادتك إلّهك، وهذا يدل على ضعف عقيدتهم، فلو كانوا أصحاب عقيدة واقتناع بها لما ساوموا عليها.

ثم ينهى اللّه نبيه ﷺ عن طاعتهم واصفاً بعضهم بخصال في غاية القبح والسوء:

﴿ولا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ. هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أثيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلك زَنِيمٍ﴾.

فاللّه سبحانه في هذه الآيات يذكر تسع خصال تستوجب غضبه:

١) حلّاف: أي كثير الحلف، ولا يكثر الحلف إلّا إنسان غير صادق يدرك أن الناس يكذبونه ولا يثقون به.

٢) مهين: حقير الرأي والتدبير، أو كذاب.

٣) همّاز: الذي يعيب الناس ويطعن فيهم ويغتابهم.

٤) مشاء بنميم: الذي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم فينقل الكلام الذي يسوء من قوم إلى قوم فتشتعل العداوة فيما بينهم، وقد بيّن النبيّ ﷺ إثم النمام بقوله: «لا يدخل الجنة قتّات»[1] أي نمام.

٥) مناع للخير: أي يحول بين الناس وبين ما يريدونه من فعل الخير، والخير يأتي بمعنى المال أي يمنع ماله عن المحتاجين.

٦) معتد: يتعدى حدود العدل والإنصاف في معاملة الناس فيظلمهم.

٧) أثيم: كثير الإثم، والإثم هو الذنب.

---

(١) رواه الجماعة إلّا ابن ماجة.

٨) عُتُلٍّ: الفظ الجافي الشديد في كفره، أو الفاحش السيء الخلق.

٩) زنيم: الرجل الذي اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه، أو هو الملصق بالقوم وليس منهم لأنه غير معروف الأب(١).

ثم يضيف الله إلى هذه الصفات صفة التكذيب بآيات القرآن:

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ. إذا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ: أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

فهذا الجاحد المغرور بأمواله وأولاده يصف آيات القرآن بأنها أساطير الأولين، أي الخرافات التي يتداولها الناس عن الأمم السابقة ولا مكان لها بين الحقائق. وقد اختلف المفسرون في الشخص المقصود بهذه الآية والأكثرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي. هذا الجاحد يهدده الله بقوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الخُرْطُومِ﴾ وأصل الوسم الكي والمراد الأثر الذي يتركه. والخرطوم هو الأنف، والمراد بوسمه في أنفه: إذلاله وإهانته، فالأنف عند العرب مكان العزة والحمية لذلك اشتقوا منه كلمة الأنفة، وقالوا في الذليل: جُدِعَ أنفه. وقد تحقق وعد الله وأصيب الوليد بن المغيرة بالسيف في أنفه يوم معركة بدر وكانت تلك علامة عُيِّر بها ما عاش.

وبعد الآية التي ورد فيها ذكر المال والبنين وبطر أصحابها جاءت الآيات تروي قصة أصحاب البستان الذين بطروا واغتروا بأموالهم ومنعوا إحسانهم عن الفقراء فعاقبهم الله بإحراق بستانهم، ولقد ذكر القرآن هذه القصة للاتعاظ والبعد عن البطر في المال لأنه يؤدي إلى الخسران، وقبل أن نستعرض آيات القرآن نذكر ملخصاً لهذه القصة:

كان لرجل صالح جنَّة (أي بستان) تحوي من الثمار الشيء الكثير،

---

(١) ومنه قول حسان بن ثابت: زنيم ليس يُعرف من أبوه   بغيٌّ الأم ذو حسب لئيم.

وكان يدعو المساكين يوم جمع الثمار ويعطيهم حقهم من زكاة ثمارها، فلما مات ذلك الوالد الصالح ورثه أبناؤه، فلم يسيروا على سيرة أبيهم فأرادوا أن يحرموا الفقراء ما اعتاده أبوهم من الإحسان إليهم، فتداولوا في أمرهم، وأقسموا أن يجمعوا ثمار البستان سرّاً في الصباح الباكر على غير العادة المتبعة كي لا يأتي المساكين ويأخذوا حصتهم المعتادة من ثمار البستان، وفي الليل سلّط اللّه جائحة سماوية على البستان فأتت على جميع ثماره.

يقول تعالى في قصة هذا البستان:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُم كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ولا يَسْتَثْنُونَ﴾.

أي لقد اختبرنا مشركي قريش المكذبين برسالة النبي ﷺ وامتحناهم، كما اختبرنا من قبل أصحاب البستان. واختبار اللّه للبشر قد يكون بإغداق النعم عليهم فيبطرون وينسون خالقهم، أو يشكرونه. وقد يكون الاختبار بإنزال المصائب بهم فيجزعون ويكفرون، أو يصبرون ويلجأون إلى ربهم. ومعنى قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ﴾ أي حلفوا أن يقطفوا ثمر بستانهم وقت الصباح ﴿وَلاَ يَسْتَثْنُونَ﴾ أي ولا يستثنون حصة المساكين فيتركونها لهم، وقيل المراد بهذا الاستثناء أنهم لم يقولوا (إن شاء اللّه) على حد قوله تعالى: ﴿ولا تَقولَنَّ لِشَيْءٍ إني فَاعِلٌ ذَلِك غَداً إلاَّ أنْ يَشاءَ اللّه﴾.

ثم يبين اللّه ما جرى لجنتهم (أي بستانهم):

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمون. فَأَصْبَحَتْ كالصَّريم﴾.

أي أحاط بها وطرقها ليلاً بلاء أو أمر من اللّه وهم نائمون، ولا يكون الطائف إلاّ ليلاً، قد يكون ذلك الطائف صاعقة أحرقت بستانهم أو غير ذلك

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيم﴾ أي أصبح بستانهم كالأرض المحصودة أو أصبح كالليل المظلم لأن من معنى الصريم الليل الشديد السواد، فالاحتراق جعله مسوداً كسواد الليل.

ثم يصف القرآن أصحاب البستان وهم يتهيأون للذهاب إلى بستانهم:

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِين. أنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إنْ كُنْتُم صَارِمِينَ. فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ. أن لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ. وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾.

أي نادى بعضهم بعضاً في الصباح ﴿أنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ﴾ أي اذهبوا مبكرين إلى زرعكم ﴿إن كُنْتُم صَارِمينَ﴾ إن كنتم مصرين على قطف الثمار ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُون﴾ فانطلقوا نحو البستان وهم يتحدثون بصوت خافت كي لا يشعر بهم المساكين، قائلين: ﴿أن لا يَدْخُلَنَّها اليوم عَلَيْكُم مِسكِينٌ﴾ أي لا تُدخلوا في هذا اليوم أحداً من الفقراء إلى البستان ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرينَ﴾ وساروا صباحاً وهم مجمعون على أمر قد قصدوه واعتمدوه وهم يظنون في أنفسهم أنهم على ذلك قادرون.

وبعد ذلك يصف القرآن المفاجأة التي أذهلتهم من احتراق بستانهم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إنَّا لَضَالُّونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ. قَالَ أوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ. قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

أي فلما وصل هؤلاء القوم إلى بستانهم، ورأوا زرعه محترقاً أنكروه وتساءلوا: هل هو بستانهم أم لا، وقالوا: ﴿إنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي ضلوا طريقهم إلى بستانهم، فقال من علم أنه بستانهم وأنهم لم يخطئوا الطريق: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرومُونَ﴾ أي حرمنا منفعة بستاننا باحتراق زرعه. ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾

قال أعدلهم قولاً وخيرهم فعلاً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ لقد ذكّرهم بما قال لهم سابقاً: هلاّ تذكرون الله تعالى وانتقامه من المجرمين وتتوبون إليه من خبث نيتكم في حرمان الفقراء من ثمر البستان ﴿قَالُوا: سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي ننزه الله ربنا عن الظلم، بل نحن كنا الظالمين لأنفسنا حين عزمنا على حرمان الفقراء من ثمر البستان.

ثم شرع بعضهم يلوم بعضاً معترفين بذنبهم:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ. قَالُوا: يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾.

أي واجه أصحاب البستان بعضهم بعضاً باللوم قائلين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهي في الأصل دعاء بالهلاك ولكن يقصد بها هنا إظهار الندم والحسرة ﴿إِنَّا كنَّا طَاغِين﴾ أي كنا متجاوزين الحد في العصيان والبغي بمنع الفقراء حقهم في الثمر.

وتنتهي هذه القصة بالتمني على الله أن يرزقهم خيراً من جنتهم (أي بستانهم) فهم راغبون في فضل الله ورحمته، راجون العفو منه:

﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

ويعقّب الله على هذه القصة بالعبرة المستقاة منها:

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانوا يَعْلَمُونَ﴾.

أي هكذا يكون عذاب الله لمن خالف أمره ومنع حق المسكين والفقير في ماله، وبدّل نعمة الله كفراً، وعقوبة الآخرة المعدّة لكل من طغى أشد وأعظم من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون عاقبة طغيانهم لما فعلوا ما يفضي إلى هذا العذاب.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ
جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ
تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا
تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ
لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ
فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ
وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ
ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن

شَــرح المفــرَدَات

تحكمون : تقضون .

كتاب : كتاب منزل من عند الله .

تدرسون : تقرأون ما فيه .

تخيّرون : تختارون وتشتهون .

أيْمان : عهود ومواثيق .

بالغة : مؤكدة .

زعيم : كفيل ، ضمين .

يُكشف عن ساق : كناية عن شدة الهول يوم القيامة .

ترهقهم : تغشاهم .

سالمون : معافون أصحاء .

ذرْني : دعني وإياه فأنا أكفيك أمره .

يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

شرح المفردات

بهذا الحديث : أي القرآن الكريم .

سنستدرجهم : سنقربهم من العذاب درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه .

أملي لهم : أمهلهم ليزدادوا إثماً .

كيدي : عذابي .

متين : قوي شديد .

مغرم : غرامة يؤدونها .

مثقلون : قد أثقلهم القيام بأدائه .

الغيب : ما اختص الله بعلمه .

صاحب الحوت : هو يونس عليه السلام .

مكظوم : مملوء غمًّا وكرباً .

نعمة : رحمة .

نُبِذَ : طُرِحَ .

العراء : الأرض الخالية من الشجر .

اجتباه : اختاره نبياً .

لَيُزلقونك بأبصارهم : يصرفونك بأبصارهم المشحونة بالعداوة عن تبليغ الرسالة .

تابع سورة القلم

ثم ينتقل القرآن إلى بيان ما أعده الله للمتقين من أجر في الآخرة:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِم جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

سمع أشراف قريش وأغنياؤهم هذه الآية وكانوا على كفرهم ومناوأتهم للنبي ﷺ فقالوا للمؤمنين وأكثرهم من الفقراء: إن الله فضلنا عليكم في الدنيا فإن صح أن هناك حياة آخرة فلا بد أن يفضلنا الله عليكم أيضاً، فرد الله عليهم ﴿أَفَنَجْعَلُ المُسْلِمِينَ كالمجرمينَ﴾ أي أن الفرق شاسع بين الفريقين فكيف يكون الفريقان سواء في نظركم؟ ثم تابع القرآن قوله: ﴿مَالَكُم كَيْفَ تحكمُونَ﴾ أي على أي أساس بنيتم هذا الحكم الغريب بجعل المسلمين والمجرمين في مرتبة واحدة؟!

ثم طلب القرآن منهم الدليل الذي بنوا عليه حكمهم هذا فقال:

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ. إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾.

أي هل نزل عليكم كتاب من عند الله فقرأتم فيه هذا الإدعاء، أو أن لكم في هذا الكتاب ما تختارون وتشتهون فيأتي موافقاً لهواكم.

ويتابع القرآن تفنيد مزاعمهم:

﴿أَمْ لَكُمْ أَيمان عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تحْكُمُونَ﴾.

أي هل لكم عهود ومواثيق مؤكدة ثابتة لكم من الله إلى يوم القيامة، وفي تلك العهود ما تحكمون فيه لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله.

ثم يأمر الله نبيه بأن يقول لهؤلاء: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي إسألهم من هو ذلك الكفيل الذي ضمن لهم في الآخرة ما للمسلمين.

ويتابع اللّه قوله:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِم إنْ كَانُوا صَادِقِين﴾.

والمراد بهؤلاء الشركاء: الأصنام التي كانوا يعتقدون أنها شركاء للّه، أو المراد أناس كافرون مثلهم يشاركونهم في رأيهم القائل بالمساواة بين المسلمين والكافرين ويكفلون لهم الكرامة عند اللّه. فإن كان الكفار يعتمدون على هؤلاء الشركاء فليأتوا بهم، وهذا تحدٍّ لهم فليس هناك شركاء يكفلون لهم الكرامة عند اللّه.

ثم تنتقل الآيات إلى مشهد من المصير الأخروي الذي سينتهون إليه:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إلى السّجودِ فَلَا يستطيعونَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إلى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾.

والكشف عن الساق تعبير أريد به في كلام العرب اشتداد الهول وعِظَمِ الخطب، والمراد بذلك يوم القيامة حيث يكشف فيه عن أمر عظيم في غاية الهول والشدة، وحيث يُدعى الكفار إلى السجود للّه لا تعبداً وتكليفاً، ولكن توبيخاً لهم على تركهم السجود له في الدنيا، وتركهم الصلاة التي من أركانها السجود، ولكنهم لا يستطيعون السجود لتيبس مفاصلهم وفقرات عظامهم التي لا تلين للسجود، فحينئذٍ تزداد حسرتهم وتنكسر أبصارهم، وتغشاهم ذلة شديدة، وقد كان هؤلاء يُدعون إلى السجود للّه في الدنيا وهم سالمون من كل العلل فيأبون للّه السجود.

وبعد هذا المشهد الذليل للكفار يوم القيامة تتوجه الآيات بالتهديد لهم:

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إنَّ كَيْدِي متينٌ﴾.

فاللّٰه تعالى يخاطب نبيه ﷺ: كِلْ أمر هؤلاء المكذبين بالقرآن إليَّ فإني أكفيك أمرهم ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي سندنيهم من العذاب درجة درجة من حيث لا يعلمون أنه استدراج لهم للعذاب ﴿وَأُمْلي لَهُمْ﴾ أي أمهلهم وأؤخر عقابهم ليزدادوا إثماً ومن ثَمَّ عذاباً.

فكلا التعبيرين (سنستدرجهم، وأملي لهم) هو تمثيل لتأخير انتقام اللّٰه من أولئك المكذبين وتركهم يتمتعون بالصحة والعافية، فيجعلون نعمة اللّٰه ذريعة إلى ازدياد الكفر والمعاصي، وهم لا يشعرون أن في الإنعام عليهم استدراجاً لهم للعذاب، بل يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين، بينما هو سبب لهلاكهم، وهذه سنة اللّٰه فهو لا ينتقم فوراً من الظالمين بل يعطيهم الفرصة لعلهم يثوبون إلى رشدهم فإذا تمادوا في غيهم أخذهم بالعذاب: ﴿إنّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي إن عذابي شديد، والكيد هو الاحتيال في إلحاق الضرر بالغير، وإذا أسند الكيد إلى اللّٰه كان المراد منه إفساد كيد الكفار أعداء اللّٰه ومجازاتهم على كيدهم، والكيد أيضاً يأتي بمعنى الحرب، فيكون المعنى: إن حرب اللّٰه عليهم شديدة.

وهكذا كان شأن مشركي العرب، فإنهم ما زالوا في غيهم حتى نزل بهم البلاء في معركة بدر وسائر الغزوات فقتل كثير منهم وتشتت شملهم.

ثم تأتي آيات القرآن مستغربة تصرفات المشركين وكأنها امتداد للحوار السابق:

﴿أم تَسْأَلُهُم أجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلونَ. أمْ عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يكتبونَ﴾.

أي: هل رفضهم قبول الحق سببه أنك تطلب منهم أجراً ومكافأة على

تبليغ رسالة اللّٰه، وهذا الأجر تنوء به قدراتهم المالية فلذلك رفضوا، وأنت أيها النبي لم تطلب منهم أجراً على ذلك. أم هل عندهم اطلاع على الغيب وما أثبت في اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما يحكمون به ويجعلونه حجة لهم؟

وإلى هنا ينتهي الكلام مع أولئك المكذبين بما يفحمهم، فلم يبق إلاَّ تثبيت قلب النبي ودعوته إلى الصبر في مجال الدعوة إلى اللّٰه وعدم تركه قومه واعتزالهم كما فعل النبي يونس، فابتلاه اللّٰه بصعاب وأهوال لم تكن في الحسبان، وهكذا سيكون حاله إذا فعل فعله واعتزل قومه بدون إذن ربه. يقول تعالى:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحوتِ إذْ نَادَى وَهُوَ مكظُومٌ. لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ. فاجْتَبَاهُ رَبُّه فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي اصبر يا محمد لقضاء ربك وحكمه فيك وفي هؤلاء المشركين، وامضِ لما أمرك به، لا يثنيك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه أنهم مكذّبوك، ولا يكن حالك ﴿كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ وهو يونس عليه السلام، أي لا تكن مثله في العجلة والغضب، فيعاقبك ربك على تركك دعوة قومك، كما عاقبه فحبسه في بطن الحوت ﴿إِذْ نَادَى﴾ إذ نادى يونس ربه وهو في بطن الحوت بأن ينجيه، مقراً بذنبه، وهو ﴿مَكْظُومٌ﴾ مملوء غماً. ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي لولا أن تداركته نعمة من ربه فرحمه بها وتاب عليه ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي لطرح بأرض قفراء خالية من الأشجار وهو ملام ومعاتب بالذنب الذي اقترفه من قلة صبره على قومه وفراره منهم، ولكن بسبب توبته لم يبق مذموماً ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فاصطفاه ربه

واختاره لنبوته، وجعله من الكاملين في الصلاح وعصمه من كل سوء.

هذه إشارة إلى قصة يونس بن متى عليه السلام، وقد ذكر القرآن بعض وقائعها في عدة سور للعبرة والعظة، ويحسن بنا أن نذكر ملخصاً لها مسترشدين في ذلك بما ورد في القرآن الكريم.

قصة يونس عليه السلام:

يونس عليه السلام أحد أنبياء اللّه، أرسله سبحانه إلى أهل نينوى قرب الموصل في العراق، وكان هؤلاء القوم يعبدون الأصنام ويرتكبون المعاصي فدعاهم يونس إلى الإيمان باللّه والتوبة عن سيئاتهم، ولكنهم أصرّوا على ما هم عليه ولم يستجيبوا لدعوته، فأنذرهم يونس بنزول العذاب عليهم بعد مدة من الزمن؛ وظن يونس أنه قد أدى الرسالة، وقام بالمهمة التي أمره اللّه بها، وخرج من مدينتهم مغاضباً لهم بسبب عصيانهم وإصرارهم على الكفر، وكان تركه للمدينة بدون إذن ربه اعتقاداً منه أن اللّه لن يؤاخذه على ما فعل، وظل سائراً حتى أتى إلى ساحل البحر فوجد سفينة على أهبة السفر فطلب من أصحابها أن يركبوه معهم ففعلوا.

أقلعت السفينة بهم وسارت في عرض البحر، ولكن سرعان ما اشتدت الرياح العاصفة، وجعلت أمواج البحر تضطرب بشدة وتهدد السفينة بالغرق، ففزع الملاحون والركاب وقالوا: إن بيننا صاحب ذنب، فتشاوروا فيما بينهم واستقر قرارهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة، فوقعت القرعة على نبي اللّه يونس فألقي في البحر[1] فبعث اللّه حوتاً عظيماً فالتقمه.

---

(١) لم يشر القرآن إلى البلد الذي أرسل إليه يونس ولا إلى ركوبه في السفينة وإلقائه منها بواسطة القرعة بل ورد في ذلك في كتب أهل الكتاب.

أراد اللّه أن لا يصاب يونس بأذى، فظل يونس في جوف الحوت عدة أيام وهو عاكف على تسبيح ربه متضرّعاً إليه معترفاً له بالربوبية وبأنه كان ظالماً فيما صدر عنه، ونادى في الظلمات: ظلمات الليل والبحر وبطن الحوت مستغيثاً بربه فقال: ﴿لا إله إلاّ أنت سُبْحَانك إني كُنْتُ مِنَ الظالمين﴾ فلبى اللّه دعاءه وقبل توبته وألهم الحوت أن يطرح يونس في أرض قفراء.

خرج يونس من بطن الحوت وهو سقيم فأنبت اللّه بقربه شجرة يقطين وارفة الظلال فاتقى بها من حرارة الشمس، وظل على تلك الحالة فترة من الزمن حتى استرد عافيته، فأمره اللّه أن يعود إلى قومه الذين فارقهم، وكانوا بعد فراقه إياهم قد أيقنوا أن العذاب سينزل بهم من بعد أن ظهرت مقدماته فقذف اللّه في قلوبهم التوبة فتضرعوا إليه فكشف اللّه برحمته ورأفته العذاب عنهم فتوجه يونس إليهم وكانوا مئة ألف أو يزيدون على ذلك فدعاهم إلى الإيمان وأدى الرسالة التي أمره اللّه بها فصاروا من المهتدين ومتعهم اللّه بالسعادة والهناء مدة حياتهم.

وننتقل إلى ختام السورة حيث يقول سبحانه مخاطباً نبيه محمداً:

﴿وإِن يَكادُ الذين كفروا لَيُزْلِقُونَكَ[1] بأبصَارهم لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ويقولونَ: إنَّه لمجنون. وَمَا هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ للعَالمينَ﴾.

---

(١) ورد في أسباب نزول هذه الآية حين أراد الكفار أن يصيبوا النبي بالعين فنظر إليه قوم من قريش فقالوا ما رأينا مثله ولا مثل حججه، وكانت العين وأخطارها في بني أسد حتى أن الناقة السمينة تمر بأحدهم فيصيبها بالعين ثم يقول: يا جارية خذي المكتل (الوعاء) فأتينا من لحم هذه فما تبرح حتى تقع مريضة فتنحر. والعين إصابتها وتأثيرها حق بأمر اللّه كما جاء في الحديث الشريف.

والمعنى: وإن يكاد الكافرون من شدة تحديقهم ونظرهم إليك ـ أيها النبي ـ بعيون العداوة والبغضاء ان يصرعوك أو يزيلوك عن مقامك الذي جعله الله لك بصرفك عن تبليغ رسالة الله ﴿لَمَّا سمعوا الذِّكر﴾ عندما يسمعون القرآن يتلى عليهم ويقولون في وصف النبي ﴿إنه لمجنون﴾ حيرة في أمر النبي وتنفيراً منه، وهم يعلمون أنه أعقلهم.

ولكن الله يرد عليهم بأن القرآن هو موعظة للناس جميعاً ﴿وما هو إلاّ ذكر للعالمين﴾[1] فهذه الآية من أعظم الدلائل على أن القرآن وحي إلٓهي لا من تأليف محمد كما يدعي أعداؤه، وإلاّ فمن أين لإنسان لا قوة له ولا سلطان، يلتف حوله أفراد قلائل من المؤمنين يُقاسون الأذى من قومهم بسبب إيمانهم ثم يعلن على قومه بأن القرآن موعظة للناس جميعاً أي أنه ليس خاصاً بالعرب، وفحوى ذلك أن الإسلام سيعم الأرض ويهتدي به الكثيرون، إن هذه النبوءة لا يقول بها إنسان أبداً ما لم يكن وحياً إلٓهياً. وقد تحققت هذه النبوءة للقرآن بعد موت النبي ﷺ بسنين عدة، واستمر المد الإسلامي حتى اليوم، فعمّ الإسلام مدن الشرق والغرب واعتنقه مئات الملايين من البشر الذين يتدارسون القرآن ويستفيدون مما فيه من هدى ومواعظ.

---

(١) هذه الآية من أوائل ما نزل من القرآن حيث كان الإسلام مستضعفاً تهدده الأخطار من كل جانب.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم

شرح المفردات

الحاقّة : من أسماء القيامة .

القارعة : القيامة التي تقرع القلوب بأهوالها .

ثمود : من قبائل العرب البائدة .

عاد : من قبائل العرب البائدة .

الطاغية : الصيحة المجاوزة للحد في الشدة .

ريح صَرْصَرٍ : ريح شديدة الصوت أو شديدة البرد .

عاتية : بالغة الغاية في الشدة .

سخّرها عليهم : سلطها عليهم .

حُسُوماً : متتابعة لم يتخللها انقطاع .

صرعى : هلكى ، مطروحين أرضاً .

أعْجَاز نخل : أصول نخل والمراد جذوعها .

خاوية : فارغة الجوف ، ساقطة على الأرض .

مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾
فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ
حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾
فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا
دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ

شرح المفردات

من باقية : من نفس باقية على قيد الحياة .

المؤتفكات : قرى قوم لوط .

بالخاطئة : الأفعال ذات الخطأ الجسيم .

فأخذهم الله : أنزل الله بهم العذاب .

أَخْذَةً رابية : عذاب زائد في الشدة ، ورابية من الربا وهو الزيادة .

طغى الماء : زاد وتجاوز حده ارتفاعاً وهو الطوفان .

الجارية : سفينة نوح عليه السلام .

تذكرة : عبرة وعظة .

تَعِيهَا : تحفظها وتفهمها .

أُذُن واعية : حافظة لما تسمع فتنفع صاحبها بما تسمع .

نُفِخَ في الصُّور : أعلم الناس بحلول يوم القيامة ، والصور هو البوق .

وَحُمِلَت الأرض والجبال : رفعت من أماكنها .

فدكّتا : فدقتا وهدّمتا .

وقعت الواقعة : قامت القيامة .

انشقت السماء : تصدعت واختل نظام أجرامها .

فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

شرح المفردات

واهية : ضعيفة متداعية .

المَلَكُ : الملائكة .

أرجائها : جوانبها .

تُعرضون : تقفون بين يدي الله للحساب .

خافية : فعلة خافية تحاولون سترها .

أوتي كتابه : أعطي صحيفته التي سجلت فيها أعماله .

هاؤم : خذوا .

ظننت : علمت وأيقنت .

مُلاقٍ حسابيه : ملاق جزاء عملي يوم القيامة .

عيشة راضية : عيشة ترضي صاحبها بما نال من الثواب .

قطوفها دانية : ثمارها قريبة التناول يقطفها القاعد والقائم .

بما أسلفتم : بما قدمتم سابقاً من العمل الصالح .

في الأيام الخالية : في أيام الدنيا .

سُورَةُ الحَاقَّة

ايضــاح و دروس

هذه السورة تذكر ما أصاب الأمم السابقة من هلاك جزاء تكذيبهم رسل الله، كما تعرض لأهوال يوم القيامة وما يكون بعد ذلك من حساب الناس على أعمالهم ومجازاتهم، ففريق في الجنة، وفريق في النار.

تفتتح هذه السورة بثلاث آيات قصار متوالية، شديدة الوقع، جديدة في التعبير، تطول آياتها بالتدريج شيئاً فشيئاً:

﴿الحَآقَّةُ. مَا الحَآقَّةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ﴾.

والحاقة من أسماء القيامة، وهي من حق الشيء إذا ثبت ولم يشك في وقوعه، وسميت بذلك لأنها متحققة الوقوع، وفيها يحق الجزاء على الأعمال. و ﴿الحَآقَّة﴾ تعبير جديد ليوم القيامة تُذكر فيها القاف المشددة التي تقرع السمع قرعاً، والمسبوقة بالمد الطويل المبرز لشدتها، ثم يقول سبحانه: ﴿ما الحَآقَّة؟﴾ استفهام يُقصد به تهويل شأنها بمعنى أي شيء هي الحاقة؟ ذلك الأمر العظيم. ثم يتبع ذلك قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَآقَّة؟﴾ أي أنك لا تعلم حقيقتها فهي من عظم الشأن وما اشتملت عليه من الأحداث بحيث لا تبلغها دراية أحد.

مقدمة مثيرة يعرضها القرآن ليهيء الأسماع إلى ما سيذكر بعدها من قصص الأمم الماضية معروضة عرضاً موجزاً غايته إثارة الذهن للتفكر في مصير الجماعات الذين لم يصدقوا بيوم القيامة وكذبوا أنبياءهم:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُ بِالقَارِعَةِ. فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بالطَّاغِيَةِ. وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾.

فثمود وعاد ليس خبرهم عن العرب مجهولاً، فهم من القبائل العربية السابقة التي هلكت ولم يبق منهم أحد، فقبيلة ثمود كانت تسكن (الحجر) من بلاد الحجاز في وادي القرى، وقد أرسل الله إليهم نبيه (صالح) عليه السلام. أما قبيلة عاد فكانت تسكن الأحقاف بين اليمن وعُمان إلى حضرموت والشحر، وقد أرسل الله إليهم نبيه (هود) عليه السلام.

فثمود وعاد كذَّبوا ﴿بِالقَارعة﴾ والقارعة أيضاً من أسماء القيامة، وقد سميت بذلك لأنها تقرع القلوب والنفوس بالهول والفزع. فإنكارهم للقيامة وتكذيبهم بحياة آخرة يحاسبون فيها على أعمالهم أدى بهم إلى الطغيان والفساد، فاستحقوا غضب الله عليهم وعقابه إياهم: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بالطاغِيَةِ﴾ أي أُهلكوا بسبب طغيانهم، والطاغية من الطغيان وهو الإفراط ومجاوزة الحد في الكفر والمعاصي. وقيل: الطاغية هي الصاعقة، وسميت الطاغية لأنها تجاوزت حدود الوصف في التدمير والإهلاك[1].

وأما مصير قبيلة عاد فبيّنه الله سبحانه بقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ والريح الصرصر هي الريح الشديدة الهبوب والبرودة، واختيار لفظ (صرصر) تعبير بليغ يصور صوت الريح، وما تحدثه من صوت

---

(١) وهذا ما ذكرته سورة الذاريات ﴿فَأَخَذَتْهُم الصَّاعِقَةُ وهم يَنْظُرون﴾ والصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين سالبة وموجبة، فإذا دنت سحابة ذات كهربائية موجبة من الأرض فحين دنوها تحصل الكهربائية بالتأثر وتتصل بالكهربائية السالبة في الأرض، ويكون الاستفراغ والاتحاد في جسم ما على الأرض، فيحترق إذا كان شجراً أو إنساناً، ويتهدم إن كان بناءً، ومبلغ ما تدمره الصاعقة منوط بمقدار كمية الكهربائيتين. وقد عبر القرآن في موضع آخر عن الصاعقة التي أهلكت ثمود بالصيحة قال تعالى: ﴿فَأَخَذَ الذين ظَلَموا الصَّيْحَةَ﴾ لأن الصاعقة تحدث صوتاً عظيماً فذلك المراد بتسميتها بالصيحة.

ينطبق على هذا اللفظ، كما أن هذه الريح كانت (عاتية) أي جاوزت الحدّ والمقدار في الشدة والبرد، أو عتت على عاد فلم يقدروا على دفعها والاتقاء منها، واستمرت على شدتها أياماً متتابعة:

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً[1] فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾.

فهذه الريح أرسلها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة مستأصلة لهم حتى أهلكتهم فهم مطروحون على الأرض جثثاً هامدة هنا وهناك كأصول النخل الفارغة الجوف الساقطة على الأرض.

ثم يأتي هذا الاستفهام الداعي للتفكر والتأمل ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ باقية﴾ أي فهل ترى منهم أو من نسلهم أحداً باقياً على قيد الحياة؟ كلا.

ذلك شأن قبيلتي عاد وثمود، وكذلك كان شأن غيرهما من المكذبين لأنبيائهم كفرعون وقومه، ومن كان قبله من الأمم الظالمة، كذلك قرى قوم لوط وهي المؤتفكات:

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ. فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِم فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾.

ففرعون هو لقب يطلق على كل ملك تربع على عرش مصر في العصور القديمة، وفرعون المقصود في هذه السورة هو الملك الذي عاصر موسى عليه السلام، ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ أي من تقدمه من الأمم الكافرة

---

(١) حسوماً: تأتي بمعنى الشؤم والنحس، وتأتي بمعنى القطع أي قاطعة للخير عنهم ومنه قيل للسيف حسام لأنه قاطع.

﴿وَالمؤتَفِكَات﴾ جمع مؤتفكة أي المنقلبة، والمراد بالمؤتفكات: المدن المنقلبات وهي مدن قوم لوط التي انقلبت على ساكنيها وصار عاليها سافلها، وسبب انقلابها وهلاك من فيها أنهم جاءوا ﴿بِالخَاطِئَة﴾ يعني بالخطيئة، وكانت خطيئتها هي اللواط. ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصوا الرسول المرسل إليهم من الله ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ أي أخذهم الله حينئذٍ بالعذاب أخذة بالغة الغاية في الشدة.

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر ما حلّ بقوم نوح مصوراً بغاية الإيجاز مشهد الطوفان والسفينة وممتناً على العرب بنجاة أجدادهم:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ في الْجَارِيَةِ. لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾.

فطغى الماء أي تجاوز حده في الإرتفاع والعلو والمراد بذلك الطوفان ﴿حَمَلْنَاكُمْ في الجارية﴾ أي حملنا أجدادكم في سفينة نوح،فالله لما أنقذ الأجداد فقد أنقذ الأحفاد الذين من نسلهم، وسميت سفينة نوح جارية لأنها تجري في الماء ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي ليجعل الله إنجاء المؤمنين بالسفينة وإغراق الكافرين ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي عبرة وموعظة تتذكرونها وتتعظون بها، ودلالة على قدرة الله وحكمته ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ وتحفظها وتفهمها أذن حافظة تسمع هذا الحديث وتنتفع به فيحذر أصحابها معاصي الله كي لا يعذبهم الله عليها.

وما ذكره الله تعالى من مصير الأمم المكذبة لأنبيائها من خسف وطوفان يبدو ضئيلاً إلى جانب هول يوم القيامة الذي يصوره سبحانه بقوله:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ[١] نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾.

والنفخ في البوق هو إيذان بحلول يوم القيامة وخراب العالم. فالجبال حينئذٍ وسطح الأرض ترفع عن مواضعها ويضرب بعضها ببعض حتى تندق ويفتت أجزاؤها وتصير على مستوى واحد، فإذا حدث هذا فماذا ننتظر أن يكون؟ تجيب الآية: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ﴾ أي عندئذٍ تكون قد قامت القيامة.

ويتبع قيام القيامة تشقق السماء: ﴿وانشَقَّت السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ والانشقاق هو انفراط عقد الكون البديع الصنع فهو متشقق متصدع ضعيف بعد أن كان محكماً.

وبعد مشهد الرعب والهول يصور القرآن مشهد جلال الله وعظمته المسيطرة على هذا الكون:

﴿والْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوقَهُم يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَة﴾.

أي والملائكة على أطراف هذه السماء، وعرش الله يحمله ثمانية من الملائكة، أو ثمانية صفوف منهم، والعرش كنّي به عن العز والسلطان والمملكة، وعرش الله لا يعلمه البشر على الحقيقة إلاّ بالاسم، وفي هذا اليوم يُعرض الناس على ربهم لمحاسبتهم على ما اقترفوه في دنياهم، فلا يخفى على الله أي شيء استتر من أعمالهم ﴿فَيَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خافِيَة﴾.

---

(١) وقد ورد النفخ في الصور في سورة الزمر مفصلاً وأنه يكون على دفعتين: في الأولى تموت كل الخلائق، وفي الثانية يبعث الأموات من قبورهم.

والناس يوم القيامة فريقان: أبرار وفجار يتناول القرآن ما يحل بهم بالتفصيل مبتدئاً بالأبرار:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيمينه فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَه إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾.

فالمؤمن يأخذ كتابه ـ أي صحيفة أعماله ـ بيده اليمنى، فهذا الكتاب هو «شهادته» التي يستحق بها دخول الجنة، فيغمره السرور حينئذٍ وينطلق لسانه مخاطباً من حوله: ﴿هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ أي خذوا واقرأوا صحيفة أعمالي التي حازت رضاء ربي ﴿إني ظننت[1] أني ملاق حسابيه﴾ إني تيقنت في الدنيا بأن الله سيحاسبني في الآخرة.

ثم يصف القرآن حياة هذا المؤمن في الآخرة:

﴿فَهُوَ في عِيشَةٍ رَاضِيةٍ. في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. كُلوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُم في الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾.

فالمؤمن راض عن عيشه في الجنة لما يلقى من ثواب الله وهو في ﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي مرتفعة ارتفاعاً حسياً وكذا ارتفاعاً معنوياً بمعنى أنها عالية الشأن ﴿قُطُوفُها دَانِيَةٌ﴾ أي ما يقطف من ثمار الجنة وعناقيدها قريب من قاطفه، وهناك يقال لهم تكريماً: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنيئاً﴾ أي كلوا واشربوا غير منغص عليكم ﴿بِمَا أَسْلَفْتُم في الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾ جزاءً من الله لكم، وثواباً على ما قدمتم في دنياكم لآخرتكم من العمل بطاعة الله في أيام الدنيا التي مضت.

---

(١) الظن يأتي بمعنى الشك وبمعنى اليقين، أي يقين تدبّر، ويلحظ في استعمال القرآن الكريم للظن على أنه ضرب من يقين إذا استعملت بعده أنّ.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ
كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ
﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ
ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ
غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾
وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ

شَـرح المفـردَات

يا ليتها كانت القاضية : ليت الميتة التي ماتها لم يبعث بعدها .

ما أغنى عني ماليَه : ما دفع عني مالي من عذاب الله شيئاً .

هلك عني سُلطانيه : زال نفوذي وجاهي ، وقيل : ضلت عني حجتي .

فغلّوه : قيدوه بالأغلال .

ثم الجحيم صلّوه : أدخلوه إلى جهنم ليقاسي نارها .

فاسلكوه : فأدخلوه فيها .

لا يحض : لا يحث غيره .

حميم : قريب يدفع عنه الضرر ويغيثه .

غسلين : ما يسيل من أجساد أهل النار من قيح أو صديد .

الخاطئون : المذنبون .

فلا أقسم : معناها حقاً أقسم و (لا) للتوكيد .

إنّه : أي القرآن الكريم .

رسول كريم : هو محمد عليه الصلاة والسلام .

قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

شرح المفردات

كاهن : الذي يدّعي علم الغيب .

تقوّل : ادعى أقوالاً وافتراها .

الأقاويل : الأقوال الكاذبة .

لأخذنا منه باليمين : لأخذناه بالقوة والقدرة .

الوتين : الشريان الواصل بين القلب والرأس إذا قطع مات صاحبه .

حاجزين : مانعين الهلاك عنه .

وانه لتذكِرَة للمتقين : أي إن القرآن هدى ورحمة للذين يخافون الله .

حسرة : الغم والندامة على ما فات .

حق اليقين : الحق الذي لا بطلان فيه ولا ريب .

فسبّح باسْم ربّك العظيم : نزه الله العظيم عن السوء والنقصان .

تابع سورة الحاقة

ثم يبين القرآن حياة الأشقياء في الآخرة:

﴿وأمّا مَنْ أوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ. مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾.

فالشقي يتناول كتاب أعماله بشماله وهذا نذير بالشؤم وسوء العاقبة، عندئذٍ يتمنى أنه لم يُعط كتابه أبداً لما دُوِّن فيه من قبيح الأعمال وانجلاء الحساب عما يسوؤه ﴿يَا لَيْتَها كَانَتِ القَاضِية﴾ أي يتمنى لو كانت الميتة التي ماتها في الدنيا كانت الفناء النهائي له فلم يُبعث بعدها حيًّا ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه﴾ أي لم يدفع عنه ماله من العذاب شيئاً ﴿هَلَكَ عني سُلطانِيَه﴾ أي ضلت وبطلت عنه حجته التي كان يحتج بها في الدنيا بأن لا حساب في الآخرة، أو بمعنى: زالت عنه قوته وقهره للغير فلا معين له ولا نصير.

وبعد ذلك يصدر الأمر الإلٓهي إلى الملائكة الموكلين بالعذاب:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ في سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ أي خذوا هذا المذنب وقيّدوا يديه ورجليه بالأغلال ثم أدخلوه إلى جهنم ليقاسي نارها، ثم اربطوه في سلسلة حديدية طولها سبعون ذراعاً لتلتف على جسده.

ويبين الله سبب عذاب هذا المذنب:

﴿إنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ العَظِيمِ. وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ. فَلَيْسَ لَهُ اليَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ. وَلَا طَعَامٌ إلَّا مِنْ غِسْلِينٍ. لَا يَأْكُلُهُ إلَّا الخَاطِئُونَ﴾.

إن سبب عذاب هذا الشقي في الآخرة هو كفره بالله وعدم تصديقه بوحدانية الله وخلو قلبه من عاطفة الرحمة على المساكين، فهو لم يكن يحض الغير على إطعامهم فضلاً عن أنه لم يفعل ذلك، فليس لهذا الكافر الشقي في الآخرة ﴿حميم﴾ أي قريب مشفق يغيثه مما هو فيه من البلاء، وليس له في جهنم طعام ﴿إلاّ من غِسْلين﴾ وهو شر طعام وأخبثه، وقيل: الغسلين هو ما يسيل من أجساد أهل النار من صديد وقيح، لا يأكله إلاّ ﴿الخاطئون﴾ أي المذنبون المقترفون للآثام.

وبعد ذلك يقسم الله بأسرار هذا الوجود الكوني بأن القرآن وحي من عنده بلّغه رسوله محمد عليه السلام:

﴿فَلاَ أُقْسِمُ[1] بِمَا تُبْصِرونَ. وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤمِنُونَ. وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾.

فالله سبحانه يقسم بالوجود كله ما يرى منه وما لا يرى سواء أكان في عالم المادة، أو عالم الروح، أما في عالم المادة فلا يزال العلم يستكشف كل يوم من أسرار الطبيعة ما كان مغلقاً، فبعد صُنع آلات التلسكوب الضخمة اكتشف الإنسان حديثاً مئات الملايين من النجوم التي كانت غائبة عن أنظاره، وبعد صنع المكيروسكوب الالكتروني الذي يكبر الأشياء مئات الألوف من المرات، رأى الإنسان من عجائب الخلية وأسرارها ما أدهشه ووقف أمامها حائراً مسبحاً معظماً القدرة الإلّهية التي أبدعتها والتي هي نواة كل

---

(١) فلا أقسم: أي أقسم على اعتبار أن (لا) زائدة للتوكيد، كأنه يقول لأقسم. أو أن (لا) عائد إلى باطلهم أي ليس الأمر كما يقولون بأنه لا بعث ثم يأتي القسم.

كائن حي على هذه الأرض، كما رأى أسراراً من طبيعة الكون ما كان مجهولاً لديه، فما أروع هذا القسم الذي ينطوي على أسرار هذا الوجود والذي خضع العلم لمضمونه.

لقد أقسم اللّٰه بذلك على أن القرآن يتلوه رسول كريم هو محمد ﷺ الذي هو ليس بشاعر، فقد كان بعض منكري رسالة النبي ﷺ يقولون: إنه شاعر فنفى اللّٰه عنه ذلك، لأن القرآن يختلف بنظمه عن نظم الشعر، كما أن محمداً ﷺ لم يُعرف عنه قبل النبوة ولا بعدها أنه نظم شعراً.

وفي قوله سبحانه ﴿قَليلاً ما تُؤمِنُونَ﴾ فالمراد بالقلة النفي أي لا تؤمنون أصلاً، أو أنهم يؤمنون في قلوبهم إلا أنهم يرجعون عنه سريعاً، كما نفى اللّٰه عن نبيه صفة الكهانة، والكاهن عند العرب هو الذي يدّعي معرفة الأسرار والإطلاع على الغيب، والمراد من قوله: ﴿قَليلاً مَا تَذَكَّرُون﴾ أي قليلاً ما تتعظون وتعتبرون بأن القرآن كلام اللّٰه لا يشبه كلام الكهنة في شيء، فقد كان للكهان العرب أسلوب خاص في الكلام يعرف بالإغراق في استعمال السجع والإفراط في استعمال الكلام الغامض، ولم يكونوا يدعون إلى عبادة اللّٰه ومكارم الأخلاق ومحاربة الشرك والفساد.

ولا بد من التنبه إلى أنه قد يتبادر إلى الذهن في الآية السابقة ﴿إنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي إن القرآن هو من قول محمد ﷺ، وتوضيحاً لذلك فإن الآية تقول: ﴿إنَّه لَقَولُ رَسُولٍ﴾ أي إنه يقوله لا بصفته الشخصية بل بصفته أنه رسول من عند اللّٰه، وهذا المعنى أوضحته الآية التالية: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِين﴾. أي أنه وحي من اللّٰه.

ثم يأتي التهديد من اللّٰه لمن يدعي النبوة كذباً:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيل. لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين. فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾.

أي لو اختلق محمد بعض الأقوال ونسبها إلى الله، وغلب استعمال الأقاويل في الأقوال الكاذبة ﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِاليمينِ﴾ أي لأخذنا بيده اليمنى وهو كناية عن التمكن منه، فإن من يضبط إنساناً من يده اليمنى التي هي آلة بطشه يكون قادراً على منعه من الحركة وشلّ قوته، وقد يراد باليمين هنا قوة الله وقدرته. و (الوتين) هو الشريان الذي يغذي القلب، ويصل القلب بالرأس إذا قطع مات صاحبه ﴿فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي فلا يستطيع أحد منكم أن يمنعنا من إهلاكه إن رأينا منه كذباً. ومفاد هذه الآيات أن محمداً لو كان كاذباً في ادعائه النبوة لقتله الله، وبما أنه لم يقتل حينما قال لكم إنه نبي فهو إذن صادق، وعلامة صدقه تأييد الله له ونصرته إياه[1].

وأخيراً يختم الله هذه السورة بذكر أوصاف للقرآن:

﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ. وإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ. وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكافِرِينَ. وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليَقِين. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ﴾.

---

(١) جاء في الفصل الثامن عشر من تثنية الاشتراع في العهد القديم: ٢٠ ـ وأي نبي تجبّر فقال باسمي قولاً لم آمره أن يقوله أو تنبأ باسم آلهة أُخر فليقتل ذلك النبي. ٢١ ـ فإن قلت في نفسك كيف يعرف القول الذي لم يقله الرب ٢٢ فإن تكلم النبي باسم الرب ولم يتم كلامه ولم يقع فذلك الكلام لم يتكلم به الرب...».

هذا النص يشهد بصدق نبوة محمد عليه السلام فلو لم يكن محمد نبياً حقاً لكان قتل ولما أيده الله ونصره، فليتعظ أهل الكتاب ولينزعوا من عقولهم هذه الغشاوة من الشك حول نبوته، وليتحروا الحقيقة في شأنه بعقل منفتح فسيظهر لهم حينئذٍ أن محمداً رسول الله حقاً.

فالقرآن هو ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي عظة يتعظ بها ﴿للمتقين﴾ وهم الذين يخافون ربهم ويتقون عقابه ﴿وإنَّا لنعلم أنَّ منكم مكذبين﴾ وإنا لنعلم أن منكم ـ أيها الناس ـ مكذبين بالقرآن ﴿وإنَّه لَحَسْرَةٌ على الكافرين﴾ وإن القرآن سبب حسرة وندامة على الكافرين يوم القيامة لما يرون من ثواب للمتقين في مقابل جزاء سيء لهم. هذا في الآخرة، أما في الدنيا فإن القرآن سيكون حسرة على الكافرين عندما تطبق تعاليمه في الأرض وينتشر نوره في الآفاق وينتصر الحق على الباطل، وبالإضافة إلى ذلك فالقرآن ﴿إنه لَحَقُّ اليقين﴾ أي الحق الثابت الذي لا شبهة فيه ولا ريب. أمام ذلك كله ﴿فَسَبِّح باسْمِ رَبِّكَ العظيم﴾ أي نزّه ربك العظيم عن كل نقصان، ومجِّده كما يليق بجلاله وعظيم سلطانه.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ (١) لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ (٣) تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ (٤) فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا (٧) يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ (٩) وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ

شرح المفردات

سأل سائل بعذاب واقع : سأل سائل عذاباً لا شك في وقوعه .

ليس له دافع : لا يمنع وقوعه أحد .

ذي المعارج : ذي السماوات أو الفضائل والنِّعَم .

تعرج الملائكة : تصعد الملائكة .

الروح : الملك جبريل عليه السلام .

صبراً جميلاً : صبراً لا جزع فيه .

يرونه : أي يرون عذاب يوم القيامة .

المهل : عكر الزيت .

العِهْن : الصوف المصبوغ .

ولا يَسأل حميمٌ حميماً : ولا يسأل قريب قريبه عن حاله .

يبصّرونهم : يرى ويُعرّف الأقارب على بعضهم البعض .

يَودُّ المجرم : يتمنى الكافر وكل مذنب ذنباً يستحق به النار .

عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾

شرح المفردات

صاحبته : زوجته .

فصيلته : عشيرته الأقربين وأسرته .

تُؤويه : تضمه إليها وتحميه .

لظى : من أسماء جهنم واللظى اللهب الخالص .

نزّاعة للشوى : تنزع الأطراف كاليدين والرجلين أو تنزع جلدة الرأس .

أدبر وتولى : أعرض عن الإيمان والحق .

جَمَعَ فأوعى : جمع مالاً أي خبأه وجعله في الوعاء (أي لم يؤدِّ زكاته) .

هلوعاً : الهلع قلة الصبر وشدة الحرص أو الجزع .

مسّه الشر : أصابه الفقر والمرض .

مسّه الخير : حصل على المال والغنى .

منوعاً : بخيلاً يمنع الفقير حقه من الزكاة .

على صلاتهم دائمون : مواظبون على أداء الصلوات الخمس .

حق معلوم : نصيب معين وهو الزكاة .

للسائل : الفقير الذي يسأل .

المحروم : الفقير الذي يتعفف عن السؤال فيحسبه الناس غنياً فيحرم .

سُورَة المَعَارِج

ايضـــاح و دروس

لما بعث اللّه محمداً بـالرسـالة الإلّهيـة وخوّف المشـركين من عذاب اللّه، عذاب الدنيا والآخرة، قـال المشركـون بعضـهم لبعض: سلوا محمداً لمن هذا العذاب وبمن يقع فأخبر اللّه عنه بقوله:

﴿سَأَلَ سَائِلٌ(١) بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾.

فعـذاب اللّه للكافـرين هو واقـع بهم في الآخرة وقد يكون في الدنيا أيضاً، لا يستطيع أحد دفعه. ومعنى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي المَعارِجِ﴾ أي من اللّه ذي العظمة والعلاء والصفات الحميدة. وقيل: ذي الفواضل والنِّعَم.

ثم يتابع اللّه قوله: ﴿تَعْرُجُ الملائكة والرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

ومعنى تعرج: تصعد. والمراد بالروح هو جبريل عليـه السلام، وقـد خُص بالذكر مع أنه أحد الملائكة تنويهاً بفضله وشرفه والمـراد بـ (إليه) أي إلى اللّه لتلقي الأوامر وتصريفها. أما قوله سبحانه: ﴿في يَوْمٍ كَانَ مِقْـدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قيل إنـه يوم القيـامة، فقـد جعل اللّه هـذا اليـوم على الكـافرين طـويلاً جـداً يقدر بخمسين ألف سنـة، والمراد بـذلـك مـوقفهم للحساب حتى يفصل اللّه بينهم، ثم بعـد ذلك يستقـر أهل النـار في النار،

---

(١) روي أن السـائل هو نضر بن الحارث حيث قال إنكاراً واستهزاءً: ﴿اللهم إن كـان هـذا هو الحق من عنـدك فامـطر علينا حجـارة من الســماء أو ائتنـا بعـذاب أليم﴾ الأنفال: ٣٢. هذا وقد قتل النضر بن الحارث في معركة بدر.

وأهل الجنة في الجنة.

وهذا الطول يكون في حق الكافر لما يحاسب فيه من حساب عسير، وما يراه من الأهوال، وما ينتظره من عذاب، أما المؤمن فيكون هذا اليوم بالنسبة إليه بمثابة دقائق معدودات، وذلك لما رواه الإمام أحمد عن رسول اللّٰه عندما سُئل عن هذا اليوم سؤال تعجب من طوله فقال: «والذي نفسي بيده إنه لَيُخَفَّفُ على المؤمن حتى يكونَ أَخَفَّ عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا».

وهناك معنى آخر هو: لو صعد غير الملائكة من منتهى أمر اللّٰه في أسفل الأرض إلى منتهى أمر اللّٰه من فوق السماوات العلى لما صعد في أقل من خمسين ألف سنة، أما الملائكة وجبريل فيقطعون هذه المسافة في أقل من يوم.

ثم يدعو اللّٰه النبي إلى الصبر الجميل الذي لا يخالطه جزع ولا شكوى فيه لغير اللّٰه على تكذيبهم بيوم القيامة، الذي يراه الكافرون غير كائن بينما هو ثابت هيِّن في قدرة اللّٰه:

﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً. إِنَّهُم يَرَوْنَهُ بعيداً. وَنَرَاهُ قريباً﴾.

ويصف سبحانه بعض مشاهد القيامة المرتسمة على الكون:

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالمُهْلِ وَتَكُونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ﴾.

والمهل هو عكر الزيت أو الذائب من المعادن، فالسماء يصبح لونها مخضراً مائلاً إلى السواد، هذا بالنسبة لوصف السماء بعكر الزيت، أما إذا أخذنا المعنى الثاني وهو الذائب من المعادن، فلعلماء الطبيعة رأي وهو: أن الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى درجة الغازية، وهي بعد درجة

السيولة وشدة الحرارة بمراحل، فلعلها يوم القيامة ـ والله أعلم ـ ستبرد إلى حدّ أن تصير معادن سائلة، أما وصف الجبال بالعهن فهو الصوف المصبوغ وذلك بسبب تفتت أجزائها واختلاف ألوانها.

هذا حال السماء والأرض، أما حال الخلائق فهو كما قال سبحانه:

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً. يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ المُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ التي تُؤْوِيهِ. وَمَنْ في الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾.

حميم المرء: قريبه أو صديقه الذي يهتم بأمره، فمن شدة ما ينزل بالناس جميعاً من الهول والفزع ينحصر هَمُّ كل واحد بنفسه بحيث لا يسأل أحد عن قريبه ما شأنه وحاله. ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون بينهم ثم يفر بعضهم من بعض. فالمجرم من عظيم ما ينزل به من البلاء والعذاب يتمنى آنذاك أن يفدي نفسه بأحب الناس إليه: من بنيه، وزوجته، وأخيه، وعشيرته التي تنصره في الملمات، بل بمن في الأرض جميعاً من الخلق إن كان ذلك ينجيه من عذاب الله. ولكن لا فداء له مِمَّا يستحقه من العذاب الذي وصفه الله بقوله:

﴿كَلَّا إِنَّها لَظَى. نَزَّاعَةً لِلشَّوَى. تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى. وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾.

كَلَّا: كلمة ردع، أي لا يُقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض جميعاً ﴿إنَّها لَظَى﴾ واللظى: من أسماء جهنم بمعنى اللهب وسميت بذلك لأنها تتلهب بالكفار ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾ الشوى: أطراف الإنسان كاليدين والرجلين، وجلدة الرأس فهذه النار تنزع بحرها لحم أطراف الكافرين وجلود رؤوسهم ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ مجاز عن إحضارهم إلى النار، وقيل تدعو بمعنى:

تهلك، فهذه النار تدعو من تغافل وأعرض عن طاعة اللّه وكتاب اللّه ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ أي جمع المال وخبأه وكنزه، لأن أوعى تعني جعله في وعاء ولا يحتاج المال إلى وعاء من صندوق وخزانة ونحو ذلك إلاّ إذا كان كثيراً جداً، وهذا وعيد شديد لمن يبخل بالمال ويحرص على جمعه فلا ينفق بعضه في سبل الخير، فلا يزكي ولا ينفق فيما أوجب اللّه عليه إنفاقه من ماله للفقراء والمساكين.

ثم ينتقل القرآن إلى وصف الطبيعة البشرية وكيفية مواجهتها للخير والشر:

﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُ جَزُوعاً. وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً إِلاَّ المُصَلِّينَ﴾.

الهلع: من معانيه، الحِرصُ، والضجر، والجزع، وقلة الصبر. فالإنسان ﴿إذا مَسَّهُ الشَّرُ جَزُوعاً﴾ أي إذا أصابه الفقر والمرض ونحوهما فهو جزوع أي كثير الجزع من ذلك لا صبر له عليه ﴿وإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ وإذا كثر ماله ونال الغنى فهو منوع أي كثير المنع لما في يده بخيل به.

أما المؤمن فإنه بعيد عن ذلك، لا يصيبه الهلع، فهو عند الشدة لا يجزع وعند الخير لا يبخل، ذلك لأنه متصل بربه معتصم به، فهذا المؤمن هو من جملة المصلين الذين استثناهم اللّه بقوله: ﴿إِلاَّ المُصَلِّينَ﴾ فبواسطة الصلاة يتصل المؤمن بخالقه، ومن اتصل باللّه سبحانه هانت عليه مصائب الحياة الدنيا وشدائدها، وتحلى بالصبر فلم يجزع، لأنه يعتقد أن اللّه قادر على كشف الضر عنه، وأنه سبحانه سيثيبه على ما أصابه من محن، هذا في حالة الشدة، وأما في حالة النعمة، فإن من اتصل بخالقه وتذكَّر نِعَمَ اللّه عنه وما وصَّاه به سبحانه من فعل الخير، انتفت عنه صفة البخل، فتراه ينفق من

ماله في سبل الخير، امتثالاً لأمر الله، وطمعاً في ثوابه، ويقيناً بأن الله سيعوّض له ما أنفق.

ثم يصف الله هؤلاء المصلّين المقصودين بالاستثناء بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ والمراد بذلك المحافظة على الصلوات الخمس وتوفيتها حقها من الخشوع والإخلاص لله، فالمداومة على الصلاة ترقق القلب وتجنبه القساوة وتدفع بالمصلي إلى الإحسان إلى الفقير، ولهذا يقول سبحانه في وصف هؤلاء المصلّين بعد ذلك:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

لقد عبّر القرآن الكريم عن الزكاة المفروضة بـ ﴿حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ لأن المؤمنين يعلمون أنها حق من الله فيؤدونها، ولا ينقصون حق المستحقين لها والقرآن جعلها: للسائل، وهو الذي يسأل الناس لفاقته، كما جعلها: للمحروم، وهو الفقير المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً ولا يُعلم بفقره، أو الذي أصابته جائحة فلم يبق له مال، أو حُرِمَ الرزق، كما أن للمحروم حقاً سوى الزكاة.

والقرآن بهذا التشريع يهدف إلى إرساء العدالة الاجتماعية، والتكافل الاجتماعي بحيث لا يبقى بين الناس بائس أو محروم. ففريضة الزكاة لا ترجع لهوى النفس إن شاء الغني أعطى، وإن شاء منع، بل هي إلزامية لأنها حق الفقير في مال الله الذي أعطاه للغني، ولهذا كان النبي ﷺ يجمع الزكاة ويأمر أتباعه بجمعها من الأغنياء، وبعد وفاته حدث أن أعلن بعض العرب منع الزكاة فقاتلهم الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه على هذا المنع حتى رجعوا عنه.

وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾

شـرح المفـردات

يُصدِّقون بيوم الدين : يؤمنون بيوم الحساب ويعملون له الأعمال الصالحة .

مشفقون : خائفون .

غير مأمون : غير مضمون دفعه .

لفروجهم حافظون : يلازمون العفة فلا يقترفون الزنا .

أزواجهم : زوجاتهم .

ملكت أيمانهم : ما ملكوا من الرقيقات والجواري .

غير ملومين : غير معاتبين ولا مسؤولين .

ابتغى وراء ذلك : تجاوز الحلال إلى الحرام .

العادون : المعتدون .

وعهدهم : العهود والمواثيق التي تعهدوا بها لغيرهم .

راعون : حافظون .

بشهاداتهم قائمون : يؤدون الشهادة على حقيقتها .

أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾
عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٖٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ
نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ
إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ
يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ
مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً
أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

شـرح المفـردات

فمال الذين كفروا : فما شأن الذين كفروا .

قِبَلَكَ : إليك ونحوك .

مُهطعين : مسرعين .

عِزين : فرق شتى .

بمسبوقين : بمغلوبين فلا يفوتوننا .

ذرهم : دعهم .

يخوضوا : يتحادثوا في الباطل .

الأجداث : القبور .

سِراعاً : مسرعين .

نُصُبٍ : صنم منصوب للعبادة أو العَلَم أو الراية .

يُوفضون : يسرعون .

خاشعة أبصارهم : أبصارهم ذليلة .

ترهقهم : تغشاهم وتعلوهم .

ذلك اليوم : أي يوم القيامة .

تابع سورة المعارج

ويتابع الله ذكر صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي والذين يقرُّون بالبعث والمجازاة بعد الممات يوم القيامة. فالتصديق بيوم الجزاء هو محور هذه الحياة وبه تستقيم الموازين، فالذي لا يصدّق به يبني سلوكه على أساس أن الحياة الدنيا غاية المطاف فينغمس في الآثام لا يبالي بتقصير أو تفريط في جَنْب الله، بينما المصدق بيوم الجزاء يزن أعماله على اعتبار أن هذه الحياة مقدّمة لما بعد الموت في حياة سرمدية لا تزول، إما إلى نعيم أو إلى عذاب.

ومن صفات المؤمنين:

﴿والَّذينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ. إنَّ عَذَابَ ربِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾.

فالمؤمنون من عذاب ربهم ﴿مشفقون﴾ أي خائفون لأن هذا العذاب لا ينبغي لأحد أن يأمنه مهما بالغ في الطاعة. ولقد كان رسول الله ﷺ دائم الخشية من الله وكان على يقين أن عمله وحده لن يدخله الجنة إلّا برحمة من الله فقد قال مرة لأصحابه: «لَنْ يُدْخِلَ احداً عَمَلُهُ الجنَّة، قالوا ولا أنْتَ يا رسُول اللّهِ قَالَ وَلاَ أَنَا إلاَّ أن يتغمَّدَني اللّهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ»[١].

ومن صفات المؤمنين أيضاً:

﴿والَّذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إلاَّ على أزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ فإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فأولئكَ هُمُ العَادُونَ﴾.

فالمؤمنون يحافظون على العفة ولا يعاشرون إلّا زوجاتهم،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وما يملكون من الرقيقات وهم في هذا غير ملومين، أما الذين يعاشرون غير الزوجات والرقيقات معاشرة الزوجات فقد تجاوزوا الحلال إلى الحرام.

وهنا نقف قليلاً لنجيب على بعض التساؤلات حول الرقيق، فالعلاقات الزوجية أمر مشروع في كل عرف وقانون، وأما قوله تعالى: ﴿ما ملكت أيْمانُهُم﴾ أي ما يملكون من الرقيقات فهذا أمر يستدعي شيئاً من الإيضاح:

فالإسلام جاء والرق نظام عالمي، واسترقاق أسرى الحرب نظام دولي، فما كان يمكن والإسلام مشتبك في حروب مع أعدائه أن يلغي هذا النظام من جانب واحد فيصبح أسرى المسلمين أرقاء عند أعدائه بينما هو يحرر أسرى الأعداء.

فالإسلام سد كل منابع الرق عدا أسرى الحرب، إلى أن يتاح للبشرية وضع نظام دولي للتعامل بالمثل في مسألة الأسرى، ومن هنا كان يجيء إلى المعسكر الإسلامي أسيرات تقضي قاعدة التعامل بالمثل باسترقاقهن، ومن مقتضيات هذا الاسترقاق ألاّ يرتفعن إلى مستوى الزوجات، فأباح الإسلام معاشرتهن كالزوجات وكرّمهن عما كن يلقين في غير بلاد الإسلام حيث كانت أعراضهن نهباً لكل طالب كالبغايا (وكان هذا مصير أسيرات الحروب في أغلب الأحيان) وإنما جعل الإسلام الرقيقات ملكاً لصاحبهن فقط لا يدخل عليهن أحد غيره.

والرقيقة تصير حرة بوسائل كثيرة منها: الولادة، فإذا ولدت من سيدها ولداً حررها ولدها بمعنى أنها تصبح أم ولد لا تباع وتكون حرة عقب وفاة سيدها.

ومنها: الإعتاق تطوّعاً أو كفارة لبعض الذنوب، وكذلك إذا طلبت أن تكاتبه على مبلغ من المال تفتدي به نفسها فَقَبِلَ سيدها ذلك فتصبح حرّة بعد

أدائها المبلغ المتفق عليه.

هذا مع العلم أن الإسلام جعل قسماً من أموال الزكاة يُصرف في سبيل تحرير الأرقاء، كما أنه شجع على عتق الأرقاء وبيّن أن ذلك العمل من أعظم القربات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه، بل إنه أدخله في الكفارات عن بعض الذنوب، فمن أفطر متعمداً في بعض الحالات أعتق، ومن كفّر عن يمينه أعتق، ومن أخطأ في بعض أمور الحج أعتق، وهكذا وضع الإسلام تشريعاً لتسهيل العتق والقضاء على الرق في المدى الطويل.

والإسلام في كثير من وصاياه أمر بالإحسان إلى الأرقاء فقال النبي ﷺ:

«إخوانكم خولكم[1] فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم».

ثم لنرجع إلى بقية صفات المؤمنين التي ذكرها القرآن:

﴿والذينَ هُمْ لِإمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ والأمانة اسم لجنس ما يؤتمن عليه الإنسان سواء من جهة الخالق، وهي الشرائع والأحكام التي يجب الإلتزام بها، أو من جهة الخلق وهي الودائع ونحوها. والعهد أيضاً يشمل عهد اللّه وهو ما ألزم الإنسان به نفسه للّه من عمل أو نذر، كما يشمل العهد بين الناس وهي جملة العقود التي اتفقوا عليها سواء أكانت فردية بين شخصين أو أكثر، أو كانت بين الدول كالمعاهدات الدولية، فالمؤمنون إذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا.

ومن صفات المؤمنين: ﴿والذينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي يقومون

(١) خولكم: الأرقاء الذين يقومون بخدمة أسيادهم.

بأداء الشهادة عند الحكام ولا يكتمونها ولا يغيرونها، بل يقومون بها بالحق دون ميل أو هوادة، وبذلك تصان الحقوق بين الناس.

كما يذكر القرآن أخيراً من صفاتهم: ﴿والَّذينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحافِظُونَ﴾ أي يُحافظون على صلواتهم لا يضيعون لها ميقاتاً، ويلتزمون شروطها وآدابها، ولا سيما الخشوع ومراقبة اللّه فيها، والاحتراز من الرياء.

ويلاحظ أن الصلاة وردت مرتين، مرة في بدء صفات المؤمنين ومرة في ختامها مما يوحي بأهميتها وكبير شأنها، وفي هذا توجيه للمسلمين ولفت أنظارهم إلى الاهتمام بها والمحافظة عليها.

هؤلاء المؤمنون المتصفون بالصفات السابقة وعدهم اللّه بالنعيم في الآخرة: ﴿أولئك في جنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ فهم في جنان الخلد يُكرمون فيها بأنواع المسرّات والنعيم، ويكرمهم اللّه بكرامته.

ثم ينتقل القرآن إلى وصف سلوك الكفار مع النبي ﷺ:

﴿فَمَالِ الذينَ كَفَروا قِبَلَكَ مُهْطِعِين. عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾.

ومعنى ﴿مُهْطِعين﴾: مسرعين، وقيل: يديمون النظر إليك. ﴿عِزين﴾: أي فرقاً شتى. والمعنى: ما بال الذين كفروا يسرعون إليك لسماع القرآن ويديمون النظر إليك وهم يجلسون حولك حلقات حلقات عن يمينك وشمالك وهم يفعلون ذلك لا ليهتدوا أو ينتفعوا بما يسمعون منك، بل للاستهزاء والتكذيب. وهم في حالتهم هذه كان يقول بعضهم لبعض: إن دخل هؤلاء ـ أي المؤمنون ـ الجنة كما يقول محمد، فنحن داخلوها قبلهم، يريدون بذلك أنهم أحق من المؤمنين لأنهم سادات قريش، فردّ اللّه عليهم:

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ. كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

أي أيطمع هؤلاء وهم بهذا الكفر والإعراض عن دعوة اللّه أن يدخلوا جنة النعيم في الآخرة ﴿كلا﴾ أي ليس الأمر كما يطمع فيه هؤلاء الكفار من أن يدخل كل امرئ منهم جنة نعيم. ثم لفت اللّه نظرهم إلى مبدأ خلقهم وهي النطفة التي نزلت من مجرى البول، ولهذا لا يصح أن يتكبروا وينكروا يوم الجزاء.

ثم أنذر اللّه هؤلاء بالهلاك فقال سبحانه:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ[1] إِنَّا لَقَادِرُونَ. عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لا أقسم: أي اقسم، لأن (لا) للتأكيد فاللّه سبحانه يقسم بنفسه فهو المالك المتكفل بالمشارق والمغارب بأنه قادر على إهلاكهم والمجيء بقوم غيرهم يكونون خيراً منهم وهو سبحانه

---

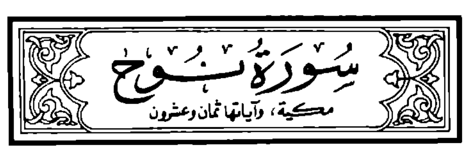
(١) قد يكون المراد بالمشارق والمغارب مشارق الشمس والقمر والكواكب وكافة النجوم ومغاربها للدلالة على سعة ملك اللّه كله، وترجع ظاهرة شروق الأجرام السماوية وغروبها إلى دوران الأرض حول محورها من الغرب نحو الشرق ولولا دورانها لما كان هناك ليل ونهار ولما استقامت الحياة على وجه الأرض.

وقد يراد بالمشارق والمغارب فيما يتعلق بالشمس وحدها ويكون بهذا إشارة إلى التعدد اللانهائي لمشارق الأرض ومغاربها يوماً بعد يوم في كل موضع على سطح الأرض، فالشمس في كل لحظة غاربة عند قطعة من الأرض ومشرقة في قطعة أخرى تقابلها، ولا تشرق الشمس على بلدة من نفس مكانها الذي أشرقت منه في الأمس أو تغرب على بلد من نفس مكانها الذي غربت منه بالأمس وإن كانت جهة الشرق واحدة وهذا بسبب دوران الأرض حول الشمس وكل ذلك من محكم تدبير اللّه وعظمته وقدرته.

لا يعجزه إهلاكهم، ولكن مشيئته اقتضت تأخير عقوبتهم، ولكن بالإضافة إلى ذلك فإنه سبحانه إذا لم يعاقبهم في الدنيا فهناك العقاب الأخروي الذي أشار إليه سبحانه في ختام هذه السورة:

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذي يُوعَدُونَ. يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُم إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ اليومُ الذي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

أي اتركهم يا محمد يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ﴿حَتَّى يُلاقوا يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ﴾ حتى يلاقوا عذاب يوم القيامة الذي وعدهم اللّه بملاقاته جزاء كفرهم ﴿يَوْمَ يخرجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً﴾ ففي ذلك اليوم يخرجون من قبورهم مسرعين إلى موقف الحساب ﴿كَأَنَّهُم إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ كأنهم إلى آلهتهم ـ أي أصنامهم ـ يسرعون أيهم يأتيها أولاً لعبادتها ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُم﴾ خاضعة أبصارهم ساكنة لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يغشاهم الذل والهوان ﴿ذَلِكَ اليَوْمُ الَّذي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي ذلك اليوم هو يوم القيامة الذي كانوا يوعدون به بالعذاب في الدنيا وقد كذبوه وها هو يتحقق اليوم، ويرونه ماثلاً أمام أعينهم، فهذا العذاب الذي سألوا عنه في مطلع هذه السورة يجيب عنه سبحانه في آخرها.



بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ

شرح المفردات

أنذِرْ : حذِّر وخوِّف .

مبين : واضح ظاهر .

اتقوه : خافوه واجتنبوا معاصيه .

أجل مُسمى : وقت معين قدّره الله لموت الإنسان .

فِراراً : تباعداً .

استغشوا ثيابهم : غطوا رؤوسهم بثيابهم .

أصرّوا : ثبتوا على الكفر ولزموه .

جهاراً : علانية .

إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ
كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ
وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ
وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ
طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ
أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ
جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ

شرح المفردات

استغفروا ربكم : اطلبوا المغفرة من ربكم .

يُرسِل السماء : يرسل المطر .

مِدراراً : متابعاً .

يُمددكم : يعطكم ويزدكم .

جنات : بساتين .

لا ترجون : لا تخافون .

وقاراً : عظمة .

أطواراً : حالات الخلق المتطورة في الرحم .

طِباقاً : بعضها فوق بعض .

يُخرجكم إخراجاً : يبعثكم أحياء يوم القيامة للحساب .

بساطاً : مستوية .

لتسلكوا منها : لتقطعوا وتسيروا .

سُبلاً : جمع سبيل وهو الطريق .

فِجاجاً : جمع فج وهو الطريق الواسع .

نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

شرح المفردات

مكروا : المكر هو تدبير السوء في خفاء .

كُبّاراً : كبيراً جداً .

لا تذرُنَّ : لا تتركوا ، أصلها لا تذروا أُدخلت عليها نون التوكيد .

ود ، سواع ، يغوث ، يعوق ، نسر : أسماء أصنام كان يعبدها قوم نوح .

مِمّا خطيئاتهم : بسبب خطاياهم وذنوبهم .

ديّاراً : من يتحرك في الأرض فيذهب ويجيء فيها

تذرهم : تتركهم أحياء .

فاجراً : خارجاً عن طاعة الله .

كفّاراً : كثير الكفر .

تَباراً : هلاكاً ودماراً .

سُورَةُ نُوح

ايضـــاح و دروس

قصص الأنبياء وسيرتهم مع قومهم من أهم العوامل المؤثـرة الموجهة التي ركز عليها القرآن واعتمدها في الجدال والحوار مع المخـالفين لدعـوة الإسـلام، وفي التبشير بـرضوان اللّٰه، والتحـذير من معصيتـه، وفي شـرح مبادىء الإسلام وأهدافه، وفي تقوية قلب النبي ﷺ ومن اتبعه، بعد أن لاقوا من الكفار الأذى الكثير.

وهذه السـورة التي تعرض قصة النبي نوح عليه السـلام مع قومه، نرى فيها ارتبـاطاً مع أحوال كفار مكة، فقوم نوح كانوا يعبدون الأصنام، وكفار مكة كانوا يعبدون الأصنام أيضاً. والقرآن يبين في هذه السـورة العـاقبة الـوخيمة التي حلَّت بقوم نوح بسبب إصرارهم على الكفر، وفي هـذا تحذيـر وإنذار لكفار مكة إن استمروا على الكفر، ولم يستجيبوا لرسالة محمد ﷺ أن يحلَّ بهم عذاب كما حلَّ بقوم نوح عليه السـلام.

يقول تعالى في مستهل هذه السورة:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا[١] نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِر قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ. قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

فالله أرسل نوحاً إلى قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام وقال له: حذِّر قومك وخوفهم عاقبة كفرهم من قبل أن يأتيهم عذاب من الله شديد مؤلم. قال نوح لقومه: إني مُرسَلٌ من الله إليكم لأحذركم من مغبّة كفركم وعصيانكم، وقد أوضحت لكم إنذاري البيِّن الظاهر.

وما يدعو إليه نوح عليه السـلام واضح جلي فيه سعادة الإنسان:

---

(١) إنَّا أرسلنا: أي نحن أرسلنا، وهو اللّٰه سبحانه.

﴿أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ واتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.

فدعوة نوح تقوم على ثلاثة أركان:

أولاً: عبادة اللّه وحده وترك عبادة الأصنام، هذه العبادة توحد بين قلوب الناس، فهم كلهم يتوجهون إلى إلّه واحد في العبادة، ففي وحدة العبادة وحدة الصف، كما أنها تحرّر الناس من الخرافات والأوهام والأساطير التي سببتها عبادة الأصنام، وترشدهم إلى الطريق المستقيم، فاللّه وحده هو المعبود بحق.

ثانياً: تقوى اللّه، والتقوى حفظ النفس عمّا يؤثم خيفة من اللّه، وقد نهى اللّه عن المآثم لأنها تفسد على الناس صحتهم وأخلاقهم، وتقوِّض مجتمعهم.

ثالثاً: طاعة رسول اللّه، ويشمل ذلك اتباع شريعة اللّه، لأن الرسول يتلقى الشريعة من اللّه مباشرة بواسطة الوحي ويبلغها إلى قومه ويأمرهم باتباعها.

هذه الأركان الثلاثة تمثل الأسس التي دعا إليها الرسل في مختلف العصور، ثم وعدهم نوح إن هم فعلوها نالوا مغفرة اللّه ونجوا من العذاب:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُم وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

والمراد من قوله سبحانه ﴿مِنْ ذنوبكُم﴾ أي بعض ذنوبكم، وهي الذنوب التي وقعت منهم قبل الإيمان. وفي قوله سبحانه: ﴿ويُؤخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي يمهلكم ويمتعكم في هذه الدنيا إلى الوقت المقدر

والمقرّر في علم اللّه الذي قدّره اللّه لانتهاء آجالكم فلا يهلككم بالعذاب ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ﴾ أي إن عمر الإنسان الذي كتبه اللّه على خلقه محدود لا يزيد ولا ينقص، وإنما أضيف الأجل إلى اللّه لأنه هو الذي أثبته وكتبه[1] ﴿لَوْ كُنتُم تَعْلَمُونَ﴾ لو علمتم حقيقة ذلك لسارعتم إلى طاعة ربكم.

ثم يصف القرآن جهاد نوح، وما كان يلاقيه من قومه من إعراض ونفور:

﴿قال: رب إِنِّي دَعَوْتُ قومي لَيْلاً وَنَهَاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً. وإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ في آذانهم واسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكباراً﴾.

فنوح خاطب ربه قائلاً: يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان بك وعبادتك ليلاً ونهاراً بلا فتور ولكن دعائي إلى الإيمان بك لم يزدهم إلا هرباً وعصياناً. وإني كلما دعوتهم إلى الإيمان بك لتغفر لهم ذنوبهم جعلوا أصابعهم في آذانهم كراهة أن يستمعوا دعوتي ﴿واسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ وغطوا وجوههم حتى لا يروني ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَروا اسْتِكْبَاراً﴾ وأصروا على الكفر وتكبروا تكبراً بالغاً عن الإيمان.

---

(١) قد يقال: كيف قال: ﴿ويؤخركم﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل، قيل الجواب على ذلك: قضى اللّه مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم اللّه ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكم على رأس تسعمائة سنة، فقيل لهم: آمنوا ﴿يؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي إلى وقت سماه اللّه وجعله غاية الطول في العمر وهو تمام الألف، ثم أخبر أنه إذا انقضى ذلك الأجل الأطول فإنه لا بد من الموت.

واستمر نوح في الدعوة إلى اللّٰه، وأصرّ قومه على الكفر، واتبع نوح كل الأساليب التي تؤثر في قومه:

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾.

لقد اعترف نوح بأنه دعا قومه إلى عبادة اللّٰه وحده ﴿جهاراً﴾ أي رفع صوته بالدعوة حتى سُمِعَ واضحاً ﴿ثم إني أعْلَنْتُ لَهُم﴾ أي أنه أعلن لهم الدعوة إلى اللّٰه، والإعلان إظهار الأمر خلاف السرّ ﴿وَأَسْرَرْتُ لهم إسْرَاراً﴾ أي دعاهم إلى اللّٰه خفية. فنوح دعاهم بمختلف الأساليب التي يراها قد تؤثر فيهم.

وفي أثناء ذلك كان نوح يرغبهم في خيري الدنيا والآخرة:

﴿فَقُلْتُ اسْتغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. ويُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أنهاراً﴾.

يطلب منهم نوح أن يرجعوا إلى اللّٰه ويتوبوا من ذنوبهم ويستغفروا ربهم عن آثامهم، إنهم إن فعلوا ذلك يقبل اللّٰه توبتهم، ويغفر لهم ذنوبهم مهما كثرت، ليس هذا فحسب بل ينزل على أرضهم المطر غزيراً متتابعاً ويعطيهم مع ذلك كثيراً من المال والبنين، ويجعل لهم بساتين من الأشجار المثمرة ويجعل لهم أنهاراً تروي مزارعهم.

وفي القرآن آيات تبين ما للإيمان والتقوى والتوبة من الذنوب من أثر في وفرة الرزق، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ولو أن أَهْلَ القُرى آمنوا واتقوا لَفَتَحْنا عليهم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ، وَلَكِنْ كَذَّبوا فَأَخَذْنَاهم بما كانوا يَكْسِبُون﴾ آية ٩٦. وقال سبحانه في سورة هود: ﴿وأن استغفروا رَبّكم ثم تُوبُوا إليه يُمَتِّعكُم مَتاعاً حَسَناً إلى أَجَلٍ مُسَمّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ آية ٣.

ونمضي مع نوح في جهاده الطويل فنجده يوجه أنظار قومه إلى آيات اللّٰه في أنفسهم، وهو يعجب من استهتارهم وسوء أدبهم مع ربهم:

﴿ما لكُم لا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقاراً. وَقَد خَلَقَكُمْ أطواراً﴾.

والرجاء: الأمل، وقد يأتي بمعنى الخوف وهو المراد هنا، والوقار في الإنسان الرزانة والحكمة، ولكنه في جانب اللّٰه العظمة، والمعنى: ما لكم لا تخافون عظمة اللّٰه، وهو الذي خلقكم (أطواراً) فالمراد بالأطوار حالات الخلق التي يتدرَّج بها الإنسان في بطن أمه من نطفة إلى علقة إلى مضغة ثم يتحول إلى مخلوق من عظم ولحم.

كما يوجه نوح أنظار قومه إلى هذا الكون الذي ينبيء عن خالق حكيم:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللّٰهُ سَبْعَ سَمٰوات طِبَاقاً. وَجَعَلَ القَمَرَ فيهِنَّ نُورا، وَجَعَلَ الشمسَ سِرَاجاً﴾.

أي ألم تعتبروا أيها القوم كيف خلق اللّٰه سبع سماوات بعضها فوق بعض، وجعل القمر في السماء الدنيا منيراً لوجه الأرض في ظلمة الليل وجعل الشمس مصباحاً يستضيء به الناس في النهار كما يستضيء الناس بالسراج في الليل.

ويوجه نوح نظر قومه إلى نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت، ليقرّر لهم أن الذي خلقهم أول مرّة قادر على إعادتهم أحياء يوم القيامة للحساب والمجازاة:

﴿واللّٰهُ أنْبَتَكُم مِنَ الأرضِ نباتاً. ثمَّ يُعيدكُم فيها ويُخْرِجُكُمْ إخْراجاً﴾.

وأخيراً يوجه نوح أنظار قومه إلى نعمة اللّه عليهم في تيسير الحياة لهم على سطح الأرض:

﴿واللّهُ جَعَلَ لَكُم الأرضَ بِسَاطاً. لِتَسْلكُوا مِنهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾.

الأرض بساطاً: أي مستوية. وفجاجاً: جمع فج وهو الطريق الواسع.

حقيقة إن هذا الكلام جاء على لسان نوح وهو يعظ قومه ولكنه في الوقت نفسه موجه من اللّه للجنس البشري.

فاللّه سبحانه يمتن على عباده بأنه جعل لهم الأرض مستوية ليسلكوا فيها طرقاً واسعة. هذه نبوءة للقرآن تحققت في العصر الحاضر، فإذا نظرنا إلى العهد الذي نزل فيه القرآن منذ أربعة عشر قرناً رأينا الطرقات في ذلك العصر لا تكاد تتسع إلاّ لبعض المشاة والراكبين على الدواب، ولكن بعد اختراع السيارات على اختلاف أحجامها منذ أمد ليس ببعيد، شق الناس الطرق الواسعة لتسهيل السير بواسطة ما استجد من آلات ضخمة، وأصبح شق الطرقات له اعتمادات مالية وافرة في ميزانيات الدول.

بعد كل هذا الوعظ ظل قوم نوح على ضلالهم، فالتجأ نوح آنذاك إلى ربه يبثه شكواه بلهجة مؤثرة تنبىء عن ألمه من الضلال المستحكم في قومه:

﴿قَالَ نوحٌ: رَبِّ إنَّهُم عَصَوْني واتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إلاَّ خَسَاراً﴾.

فنوح يخاطب ربه قائلاً: إن قومي عصوني فيما دعوتهم إليه من الإيمان بك وطلب المغفرة لذنوبهم، واتبعوا قادتهم ورؤساءهم الأغنياء

الذين لم يزدهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلاَّ ضلالاً في الدنيا وعقوبةً في الآخرة.

إن إصرار قوم نوح على الكفر سببه: السير وراء القيادات والزعامات الضالة المضلّلة التي تخدع الأتباع بما تملك من المال والأولاد، ومظاهر الجاه والسلطان.

فاتباعهم لهذه الزعامات الضالة الغنية كانت خسارة لهم في الدنيا والآخرة لأنها جعلتهم يتمادون في الكفر.

ويتابع نوح مخاطبة ربه قائلاً:

﴿ومكروا مكراً كُبَّاراً. وقالوا: لا تَذَرُنَّ آلهتكُم ولا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُوَاعاً ولا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلاَّ ضَلالاً﴾.

﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ والمكر هو الخداع. فهؤلاء الرؤساء خدعوا قومهم خداعاً كبيراً، وحضوهم على الاستمساك بهذه الأصنام[1] التي ظلت تعبد من بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية وهي: ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر.

وهكذا كل قيادة ضالة مضللة تقيم أصناماً تختلف أسماؤها وأشكالها، وتجمع حولها الأتباع، فمنها أصنام الأحجار، وأصنام الأشخاص «عبادة الشخصية» وأصنام الأفكار والمذاهب المضللة.

---

(١) الصنم هو تمثال مصنوع من خشب أو معدن أو حجر وله شكل مخلوق حي كإنسان أو حيوان أو طائر أو مزيج من ذلك كله، ويمثل الصنم في نظر عابده قوة عليا هي فوق الطبيعة.

كـل هذه الأصنـام استغلها الـزعماء لمصـالحهم الخاصـة، فأرهقت عابديها، وولدت النزاع بين البشر، وصرفت الناس عن الخالق، والمبادىء الإنسـانية التي أوصى بها دين اللّه.

هذه الأصـنام ضل بسـببها كثير من الناس ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً﴾ ويحتمل معنى آخـر وهو: أن رؤساء قوم نوح أضلوا كثيراً من الناس.

بعـد هذا الضـلال المستحكم يدعـو نوح على قـومـه الميؤوس منهم بقوله:

﴿وَلاَ تَزِدِ الظَّالمينَ إلاَّ ضَلالاً﴾ إنه دعـاء المتألم اليـائس من إيمانهم الذي استعمل معهم مختلف أسـاليب الإقناع فلم ينجـح منها شيء ولم يبق أمامهم سوى الزيادة في الضلال كي يستحقوا العذاب الأليم.

ومن هنا يأتي الجواب القاصم من اللّه بإيجاز مدهش يصور عاقبة الكفر ونهايته الوخيمة:

﴿مِمَّا خطِيئَاتِهِم أُغْرِقُـوا فَأُدْخِلُوا نَـاراً. فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَنْصَاراً﴾. أي بسـبب خطاياهم أغرقوا بالطوفان في الدنيا، وسيـدخلون ناراً في الآخرة، وقد يكون المراد بالنار هو عذاب القبـر في الفترة القصيـرة بين الدنيا والآخرة، وهم لم يجدوا من غير اللّه أنصاراً ينقذونهم من عذاب اللّه.

ثم يكمل نوح دعاءه على قومه بقوله:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَـذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافِـرِينَ دَيّاراً. إنَّـكَ إن تَذَرْهُمْ يُضِلّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدوا إلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾.

فقد أدرك نوح أن الأرض تحتاج إلى غسـل يـطهرهـا من أدران الكفر الـذي استعصى على العـلاج، من أجـل ذلـك دعـا نـوح ربــه بـأن يهلك

الكافرين: ﴿لا تَذَرْ على الأَرْضِ مِنَ الكافرين ديَّاراً﴾ أي لا تترك أحداً منهم حيّاً على وجه الأرض. فإصرار الكافرين على كفرهم يجمد الدعوة إلى دين الله ويصرف الغير عن هداه، كما أن نسل هؤلاء الكافرين يسير على منهج آباءهم وبذلك يستمر الكفر في الأرض ﴿ولا يَلِدُوا إلاّ فَاجِراً كفَّاراً﴾ والفاجر هو العاصي ربه المائل عن الحق، وكفّار هو المبالغ والمسرف في الكفر.

وإلى جانب دعاء نوح على قومه بالهلاك كان هذا الابتهال منه المشوب بالرحمة للمؤمنين:

﴿رَبِّ اغفِر لي ولوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بيتِيَ مُؤمناً، وللمؤمنين والمؤمناتِ، وَلاَ تَزِدِ الظالمين إلاّ تَبَاراً﴾.

ودعاء نوح ربه بأن يغفر له، وهو النبي المرسل من الله، هو دعاء العبد الذي لا ينسى أنه بشر، وأنه يخطىء ويقصِّر مهما أطاع ربه.

ودعاؤه لوالديه هو دعاء الوفاء لهما، وتعليم للمؤمنين للبر بالوالدين.

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات هو برّ المؤمن بالمؤمن، وحب الخير لأخيه كما يحب لنفسه، هو برّ المؤمن بالمؤمنين في كل زمان ومكان، والشعور برابطة الأخوة الوثيقة والمحبة الخالصة التي تجمع بينهم على مدار الزمن.

وفي مقابل هذا الحب للمؤمنين يأتي ختام السورة بالدعاء بالهلاك على الظالمين ﴿وَلاَ تَزِدِ الظالمينَ إلاَّ تَبَاراً﴾ أي هلاكاً، أو خساراً.

وقد استجاب الله دعاء نوح عليه السلام وأرسل الطوفان فأغرق الظالمين، بينما نجّى الله نوحاً ومن آمن معه بأن أمره بصنع سفينة فركبوا فيها، ونجوا من الغرق، وقد ذكر القرآن ذلك في مواضع متفرقة منه.

التفسيرُ العِلمي

يقول تعالى على لسان نوح الذي يبين بعض مظاهر القدرة الإلّهية:

﴿وَجَعَلَ الْقَمَر فيهنَّ نوراً وَجَعَلَ الشَّمسَ سِرَاجاً﴾.

فاللّه سبحانه يُعلن بأن الشمسَ تشبه السراج أي المصباح وهو الذي يضاء بالزيت أو الكحول أو الكاز، والسراج له ضوء ذاتي كما أن له لهباً يصدر بواسطة الفتيل. وقد بيّن العلم أن الشمس كتلة غازية ملتهبة وأنها تستمد طاقتها من تفاعلات وانفجارات نووية، فاتفق العلم مع القرآن من حيث أن الشمس مكونة من لهب، وأن هذا اللهب يستمد طاقته من مركزها الداخلي.

كما وصف القرآن القمر بأنه (نور) فهو إذن كتلة مظلمة وضوؤه مكتسب ومعكوس منه، وهذا ما أثبته العلم من أن القمر جرم مظلم يستمد نوره من الشمس.

ولا شك أن هذا من الدلائل على أن القرآن هو من عند اللّه الذي خلق الشمس والقمر وعرف طبيعة كل واحد منهما وعبّر عنهما تعبيراً يتفق مع حقيقتهما.

النبات أساس غذاء الإنسان:

ويقول تعالى على لسان نوح أيضاً.

﴿وَاللّهُ أَنْبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾.

فهذه الآية تعلن بأن اللّه أنبتنا من الأرض مثل النبات وأن استمرار حياتنا يتوقف على النبات. هذا الوصف القرآني يدعونا إلى وقفة تأمل إذ من المعروف لدى العلماء أن الإنسان حيوان وليس نباتاً.

ولكن الأبحاث العلمية في مصدر الإنسان تؤكد المعنى الذي أشار إليه القرآن في هذه الآية فقد جاء في كتاب (الماء معجزة الطبيعة)[1]: «قرر علماء الأحياء أنه لا بد لجميع الحيوانات وضمنها أنا وأنت أيها القارىء، وكذلك جميع البكتيريا أن تعيش عن طريق أكل النباتات أو المنتجات النباتية أو الحيوانات التي أكلت هذه النباتات، فقد نأكل سمكة كانت تعيش على أكل أسماك أصغر، وهذه بدورها كانت تعيش على أسماك ما زالت أصغر أو على ديدان أو غيرها من الحيوانات، ولكن إذا تتبعنا هذه السلسلة حلقة حلقة فلا بد أن نجد نباتات في نهايتها. . . فالنباتات إذن هي قاعدة وأساس هرم الحياة الذي يحتل الجنس البشري قمته».

وهكذا نرى أن القرآن أوجز وصف غذاء الإنسان والعناصر التي يعيش منها كما قرره العلم حديثاً.

---

(١) تأليف طومسون كينج.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾

شرح المفردات

قل : الخطاب هنا لمحمد عليه السلام .

أوحي إليَّ : نبئت بطريق الوحي .

نَفَرٌ : جماعة بين الثلاثة والعشرة .

الجن : عالم مخلوق من نار غير مرئي .

قرآناً عجباً : يثير الدهشة والعجب من فصاحته وهديه .

يهدي إلى الرشد : يدعو إلى الحق والهدى .

فآمنّا به : صدقنا أنه من عند الله .

تعالى جَدُّ ربنا : تنزهت عظمة ربنا .

صاحبة : زوجة .

سفيهنا : جاهلنا ، والسفيه الخفيف العقل السيء التصرف .

شططاً : قولاً بعيداً عن الحق .

الإنس : الناس .

وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

شرح المفردات

يعوذون : يلجأون ويستجيرون .

رهقاً : ظلماً وإثماً ، وقيل : ذلة وضعفاً .

يبعث الله أحداً : يعيدهم أحياء يوم القيامة للحساب .

لمسنا السماء : طلبنا خبرها .

حرساً شديداً : حراساً أشداء وهم الملائكة .

شُهباً : جمع شهاب وهو شعلة النار الساطعة .

مقاعد للسمع : مواضع يقعدون فيها لاستراق السمع .

رصداً : مترقباً لينقض عليه .

رشداً : هداية وتوفيقاً .

دون ذلك : أدنى من الصالحين ، أو هم الكافرون .

طرائق قِدداً : فرقاً شتى ، جمع قدة .

لن نُعجزَ : لن نفلت من عقابه .

بخساً : انتقاصاً من حقه في الثواب .

سُورَة الجِنّ

ايضــاح و دروس

هذه السورة تصحح أوهاماً كثيرة عن عالم الجن، وتوضح حقيقة هذا الخلق الخفي عن الأنظار، وقد كان العرب المخاطبون بهذاالقرآن ـ في عهد النبي ﷺ ـ ينظرون إلى الجن نظرتهم إلى آلهة غامضة خفية[١]، وجعلوا بين الجن وبين الله نسباً، كما جعلوا لله شركاء من الجن، وهذا ما ذكره القرآن: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ الأنعام: ١٠٠. كما كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان والعرافين فيتنبأون بما يُسألون عنه، وهذا ما دحضه القرآن في هذه السورة، كما أن النبي ﷺ أنكر ذلك ونهى عن تصديق الكهنة والعرافين فيما يقولون إذ قال: «من أتى كاهناً[٢] أو عرَّافاً[٣] فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد»[٤].

وأكثر من هذا فقد كانوا يعتقدون بأن للجن سلطاناً على الأرض، فإذا بات الواحد منهم في وادٍ مقفر استعاذ بكبير الجن أن يعتدي عليه أحد من قومه.

والاعتقاد في الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشياً في كثير من المجتمعات البشرية، ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) كاهناً: الكاهن هنا من يتعاطى الإخبار عن الكائنات في المستقبل ويدعي معرفة الأسرار.

(٣) العراف: هو المنجم الذي يتعاطى معرفة مكان المسروق والضالة وغير ذلك.

(٤) روه أصحاب السنن.

كثيرة إلى يومنا هذا.

وكلمة (جن) مشتقة من الإجتنان أي الإستتار، فهم عالم خفي غير مرئي. وتحدث القرآن عن طبيعة أجسامهم فقال: ﴿وَخَلَقَ الجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ الرحمٰن: ١٥، والمارج هو النار الصافية التي لا يشوبها دخان.

وهناك من ينكر وجود الجن أصلاً ويصف أيَّ حديث عن هذا الخلق المغيب عن الأنظار بأنه حديث خرافة.

أما الإسلام فقد جاء يقول كلمة الفصل في هذا الموضوع الذي اختلف فيه الناس بين منكر ومصدِّق، فيقرر الحقيقة، ويثبت وجود الجن، ويبيّن حقيقتهم، ويصحح المفاهيم الخاطئة عنهم، ويحرُّر القلوب من الخوف والخضوع لسلطانهم الموهوم. وفي موضع آخر من القرآن يبيّن اللّه أن الجن كانت مسخرة لسيدنا سليمان يستخدمها في شؤونه.

والعلم اليوم لا يستطيع أن ينكر كل ما لا يكون تحت يده وحواسه، فهناك قوى طبيعية كانت غائبة عنه ثم ظهرت بواسطة ما استجد من مخترعات وآلات تعين الحواس على الإدراك، والعلم اليوم لم يرَ كل القوى التي استخدمها، فكيف له أن ينكر أشياء هو بنفسه عاجز عن تفسيرها والوصول إليها.

والقرآن الكريم خصّ الجن بسورة أماطت اللثام عن جانب من تصرفاتهم، وهي موضوع دراستنا الآن وفي مستهلها يقول تعالى:

﴿قُلْ: أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فَقَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾.

فالخطاب هنا للنبي ﷺ، وإيحاء اللّه له هو إلقاؤه إليه ما يريد أن يعلّمه

إياه من المعارف الدينية، ومما أوحى اللّه إليه هو هذه السورة. ومعنى: ﴿نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ﴾ أي جماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة. وهؤلاء الجن بعد أن استمعوا إلى القرآن رجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إنَّا سمعنَا قرآناً عجباً﴾ أي سمعنا قرآناً مثيراً للغرابة والدهشة من حيث مباينته لأمثاله ونظائره من الكتب، بما يحتويه من بديع الحكم، وبالغ العبر، وأصول الهدى.

وقد روي في أسباب نزول هذه السورة عن ابن عباس قوله: ما قرأ رسول اللّه على الجن ولا رآهم، أي أن الجن استمعوا إلى النبي ﷺ دون أن يعلم بوجودهم، وإنما انطلق النبي بطائفة من أصحابه متوجهين إلى عكاظ، وقد حيل بين الجن وخبر السماء بانقضاض الشهب عليهم، فقالت الجن: ما ذاك إلاّ لشيء حدث، فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها لتعرفوا سبب هذا الأمر. . . فانطلقوا فصادفوا النبي ﷺ وهو يصلي الفجر بأصحابه في (وادي نخلة) فلما استمعوا له وهو يقرأ القرآن قالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، ورجعوا إلى قومهم يحدثونهم بما رأوا. وهؤلاء الجن وصفوا القرآن بقولهم:

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾.

فهذا القرآن يهدي إلى الحق والصواب، وإن النتيجة الطبيعية لهذه الهداية هي الإيمان والتصديق بأنه كتاب اللّه ولذا قالوا (فآمنا به) كما أن من مستلزمات الإيمان به الإيمان باللّه إيماناً خالصاً موحداً له غير مشرك به أحداً ولذا قالوا أيضاً: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بربِّنا أَحَداً﴾.

ويتابع القرآن ذكر حديثهم:

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنا ما اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً. وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا على اللّهِ شَطَطاً﴾.

فالجن قد قالوا ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته ﴿ما اتَّخَذَ صَاحِبَةً ولا وَلداً﴾ ما اتخذ زوجة وبالتالي لم يكن له ولد ﴿وأنه كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً[1]﴾ وسفيه الجن هو إبليس كان يقول على اللّه قولاً كذباً بما نسب إلى اللّه من زوجة وولد.

ثم يعتذر الجن عما كان منهم من عقائد باطلة:

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾.

أي أنهم حسبوا أنه لن يكذب أحد على اللّه سواء أكان من الإنس أو من الجن ولكن لما سمعوا القرآن أيقنوا أن إبليس كان كاذباً فلهذا سموه سفيهاً[2].

ثم يبيّن القرآن أن استجارة الناس بالجن كانت ضلالاً وخطيئة:

﴿وأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يعُوذونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾.

وقد روي أن الرجل قبل الإسلام كان إذا أراد المبيت أو الحلول في وادٍ نادى بأعلى صوته: يا عزيز هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك، فيعتقد أن مناداة كبير الجن الذي بالوادي بمنعه ويحميه. ﴿فَزَادُوهم رَهَقاً﴾ أي زاد الإنس الجن بفعلهم هذا طغياناً وجراءة عليهم، أو بمعنى: فزاد الجن العائذين بهم من الإنس ضلالاً أو خوفاً، وقيل: إثماً.

ويبيّن القرآن ما كان عليه الجن من عقائد باطلة:

﴿وَأَنَّهُم ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُم أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحداً﴾.

---

(١) الشطط: الغلو في الكذب والكفر والظلم.

(٢) السفيه: الخفيف العقل الجاهل الأحمق.

أي وان الجن ظنوا كما ظننتم يـا كفار قـريش أن لن يبعث اللّه أحداً رسولاً إلى خلقه يدعوهم إلى توحيده، وقد يراد بـالبعث إعادة الإنسـان حيّاً للحسـاب.

كمـا يبين القرآن أن الجن لا يعلمـون الغيب بشـأن البشـر، وأن مـا يدعيه الكهّان والعرّافون والسحرة من علمهم بالغيب بواسطة الجن هو كذب وافتراء، وبهذا يحرّر الإسلام أتباعه من كل الخرافات والأوهام ويضـع حدًّا لكل ما هو شائع وذائع آنذاك.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾.

فاللّه يحكي عن الجن قولهم: ﴿وأَنَّا لمسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي طلبنا أخبـار السماء واللمس هنا استعير للطلب ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئت حَرَساً شديداً﴾ فوجدنا السمـاء ملئت حراسـاً أقويـاء من الملائكـة يحرسـونها من استـراق السمـع ﴿وَشُهُباً﴾ تنقض على مسترقي السمع ﴿وَأَنَّا كنَّـا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِـدَ للسَّمْعِ﴾ وأنّا كنا نقعـد قبل هـذا في السـماء في مـواضع خـالية من الحـرس والشهب ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَـهُ شهابـاً رَصداً﴾ أمـا من يحـاول الآن استـراق السمع يجد شهاباً معداً ومهيئاً له ينقض عليه فيصيبه ويصده عن الاستمـاع إلى أخبار السـماء، فالجن كانـوا قبل بعثـة النبي ﷺ يظفـرون بحاجتهم من أخبار السـماء أما بعد بعثة محمد ﷺ فلم يعد للجن نصيب من ذلك.

ويذكر القرآن اعتراف الجن بجهلهم بالغيب ويبين معتقداتهم:

﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن في الأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً. وأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدا﴾.

أي نحن معشر الجن لا ندري أعذاباً أراد اللّه أن ينزله بـأهل الأرض بمنعه إيانا من استراق السمع من السماء، أم أراد بهم خيراً بأن يبعث منهم رسولاً يرشدهم إلى الهدى ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصالحون﴾ وهم المسلمون العاملون بطاعة اللّه ﴿ومِنَّا دون ذلك﴾ ومنّا قوم ليس صلاحهم كاملاً أو ليس لهم صلاح ﴿كنّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾ الطرائق: جمع طريقة، وطريقة الرجل مذهبه، وقدداً: متفرقة مختلفة أي كنا مذاهب مختلفة وفرقاً شتى، فمنا المؤمن، ومنا الكافر.

ويذكر القرآن اعتراف الجن بقدرة اللّه القاهرة وسلطانه المطلق:

﴿وأنّا ظَننّا أن لن نُعجز اللّهَ في الأرض وَلن نُعجزه هرباً﴾.

الظن هنا بمعنى العلم واليقين، أي أنهم علموا وأيقنوا أنهم لن يسبقوا اللّه في الأرض فلا يدركهم، كما أنهم لا يقدرون أن يفوتوه بهرب إن أراد بهم عقاباً، فهو يطالهم أينما كانوا.

ثم يصف القرآن حال الجن عند سماعهم القرآن.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهُدى آمنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً﴾.

فهؤلاء الجن لما سمعوا القرآن وسموه (الهدى) لأنه النور الذي يهدي قلوبهم إلى الحق، لما سمعوه صدّقوا وأقرّوا بأنه من عند اللّه، ومن يؤمن بربه فلا يخاف ﴿بخساً﴾ أي انتقاصاً من حقه في الثواب فيعطى أقل مما يستحق، كما أنه لا يخاف ﴿رَهَقاً﴾ أي ظلماً لا يطاق تحمله أو إثماً يحمل عليه من سيئات غيره، وهذا يبيّن عدالة اللّه التي تطمئن النفوس إليها وتُغْريها بسلوك طريق الإيمان.

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ

ع

شـرح المفـردات

المسلمون : الذين أسلموا لله وخضعوا له بالطاعة .

القاسطون : الجائرون الحائدون عن سبيل الهدى .

تحرّوا رشداً : قصدوا طريق الحق .

لجهنم حطباً : وقوداً لجهنم .

استقاموا على الطريقة : ساروا على طريق الإسلام .

ماء غدَقاً : ماء كثيراً ، والمراد توسعة الرزق عليهم .

لنفتنهم : لنبلوهم ونختبرهم .

صعداً : شديداً شاقاً .

عبد الله : أي محمد عليه السلام .

يدعوه : يعبد ربه وحده .

لِبَداً : متراكمين من ازدحامهم عليه .

رشداً : هداية .

لن يُجيرني من الله أحد : لن يدفع عني احد عذابه إن أنزله بي .

أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

شـرح المفـردات

مُلتحداً : ملجأ ألجأ إليه .

إلاّ بلاغاً من الله ورسالاته : لا أملك إلاّ تبليغ رسالة الإسلام .

ما يُوعدون : ما يُنذرون به من العذاب .

ناصراً : معيناً وحامياً .

إنْ أدري : ما أدري ، وإن حرف نفي بمعنى ما .

أمداً : زماناً بعيداً .

الغيب : ما خفي علمه عن العباد .

فلا يُظهر : فلا يطلع .

إلاّ من ارتضى من رسول : إلاّ من اصطفاه لرسالته ونبوته .

يسلك : يبث ويرسل .

رصداً : حراساً وحفظة من الملائكة .

تَابع سُورَة الجِـنّ

والجن فريقان بالنسبة إلى الإيمان:

﴿وأنَّا مِنَّا المسلمون ومِنَّا القاسِطُونَ فَمَنْ أسْلَمَ فَأولئك تحرَّوْا رشداً. وَأمَّا القاسِطُونَ فَكانُوا لجهنَّم حطباً﴾.

فالجن كالبشر منهم المسلمون الذين أسلموا لله وساروا على هديه فهؤلاء ﴿تَحَرَّوا رَشَداً﴾ أي قصدوا طريق الحق عن تحرٍّ وبحث وتمحيص واجتهاد لأن التحري يعني كل ذلك، ويقودنا هذا إلى أن الإسلام ينبغي أن يكون نتيجة نظر وفكر وتأمل ليكون إسلاماً مطمئناً واثقاً مبنياً على قواعد ثابتة لا تتزحزح لأدنى شبهة أو تنهار لأي شكوك شأن الإسلام المبني على الوراثة غير المصحوب بالدراسة والبحث. أما ﴿القَاسِطُونَ﴾ أي الجائرون الظالمون المنحرفون عن طريق الهدى والرشد فمصيرهم أن يكونوا وقوداً للنار يزيدون في لهبها.

ويبين القرآن بأن الناس لو سلكوا سبيل الهداية لجاد الله عليهم بالنعم:

﴿وَأن لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأسْقيناهُم مَاءً غَدَقاً. لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾.

أي ولو سلكوا الطريق القويم طريق الحق والخير وهو الإسلام ﴿لأسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً﴾ أي لأسقيناهم ماءً غزيراً، والمراد من ذلك توسعة الرزق عليهم وإغداق النعم لهم ﴿لِنَفْتِنَهُم فيه﴾ أي لنختبرهم ونمتحنهم به.

فالقرآن يبيّن حقيقتين يجب أن تعيها الأمم:

الحقيقة الأولى: أن الحياة الطيبة ورغد العيش إنما هو أثر من آثار تقوى اللّٰه والعمل بطاعته.

والحقيقة الثانية: أن الرخاء الذي يسبغه اللّٰه على عباده السائرين على هديه هو اختبار لهم وامتحان كما قال سبحانه: ﴿لِنَفْتِنَهُم فيه﴾ فالاختبار بالنعمة في حاجة ملحة إلى يقظة دائمة تعصم من الانزلاق في الآثام. فنعمة المال وسعة الرزق غالباً ما تقود إلى البطر وقلة الشكر، ونسيان الإنسان لربه، والإعراض عن دينه مما يؤدي إلى الحرمان من النعم، وحلول عذاب اللّٰه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ومن يُعرض عن ذِكْرِ ربه يَسلكه عَذاباً صَعداً﴾ ومعنى: ﴿ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ عبادة ربه، أو القرآن، أو مواعظ ربه. ﴿يَسْلُكه﴾ يدخله ﴿عَذاباً صَعَداً﴾ أي عذاباً شاقاً، لا راحة فيه.

ويدعو اللّٰه نبيه إلى عبادته وحده وعدم الإشراك به:

﴿وَأَنَّ المَساجِدَ للّٰهِ فلا تدعوا مَعَ اللّٰه أَحَداً﴾ والمساجد هي الأماكن التي يحصل فيها السجود، فالمسجد إسم مكان مأخوذ من الفعل سجد فالمساجد هي المواضع التي بنيت للصلاة والعبادة، لذلك توصف بأنها بيوت اللّٰه.

فقد كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعهم أشركوا باللّٰه فأمر اللّٰه نبيه والمؤمنين أن يوحّدوا اللّٰه وحده ويخلصوا له الدعاء.

وبعد هذا يبيّن القرآن تصرفات الجن أو الكافرين إزاء النبي ﷺ:

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللّٰهِ يَدْعُوهُ كادوا يكونونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾.

فاللّٰه سبحانه يقول: ﴿وَلَمَّا قَامَ عَبْدُ اللّٰهِ يَدْعُوهُ﴾ أي ولما قام محمد ﷺ يعبد ربه ﴿كادوا﴾ قاربوا وأوشكوا ﴿يكونون عليه لِبَداً﴾ لبدا: أي

مجتمعين بعضهم على بعض، وتأتي بمعنى: يركب بعضهم بعضاً. والضمير في ﴿كادوا﴾ يمكن أن يعود على الجن على اعتبارهم أنهم لما استمعوا إلى النبي وهو يتلو القرآن في صلاته قارب أن يركب بعضهم بعضاً من شدة ازدحامهم حوله إعجاباً بما تلا من القرآن وما رأوا من عبادته.

ويمكن أن يعود الضمير في ﴿كادُوا﴾ على كفار قريش، فيكون المعنى: ولما قام محمد بالرسالة الإلهية يعبد اللّٰه وحده التفوا حوله جماعات جماعات محاولين إطفاء نور اللّٰه وضرب الحصار حوله، للحؤول دون انتشار دعوته والإفادة منها.

أمام هذا يأمر اللّٰه نبيه ﷺ بمخاطبة المشركين بقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً. قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولا رَشَداً﴾.

أي قل لهم يا محمد: إنما أعبد ربي ولا أُشرك معه أحداً في العبادة، وقل لهم: لا أقدر على دفع الضرر عنكم ولا إيصال الخير إليكم، وليس لي من الأمر شيئاً في هدايتكم ولا غوايتكم.

هذه هي دعوة الإسلام واضحة خالية من التعقيد والألغاز، فهي تقوم على عبادة الله وحده، كما أنها تصحح المفاهيم الباطلة التي تسيطر على كثير من اتباع الديانات الذين جعلوا انبياءهم في منزلة الله ونسبوا إليهم النفع والضر، بينما ذلك من اختصاص الله وحده.

ثم يؤكد القرآن هذا المعنى فيقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللّٰهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحداً﴾.

أي قل يا محمد لن ينصرني ويحميني من عذاب اللّٰه أحد إن عصيته،

ولن أجد من غيره ملاذاً أو ملجأ ألجأ إليه.

فالنبي ﷺ لم يخرج عن كونه بشراً يسري عليه ما يسري على الناس جميعاً من الثواب إن أطاعه والعقاب إن عصاه كما قال سبحانه:

﴿إلاَّ بلاغاً مِنَ اللَّهِ ورسالاته، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أبداً. حَتَّى إذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً﴾.

فاللَّه يأمر نبيه بأن يقول لقومه: بأنه لا يخلصه ولا ينجيه إلاّ تبليغ رسالة اللَّه التي أمره سبحانه بأدائها، ومن يعص اللَّه ورسوله فإن له نار جهنم ماكثاً فيها أبداً في الآخرة. والعصاة عندما يرون العذاب ـ الذي يعدهم به ربهم ـ ماثلاً أمام أعينهم تتبدى لهم حقيقة ضعفهم، ولا ينفعهم يومئذٍ أنصارهم، وهم يومئذٍ قلة لا يعتد بها أمام جند اللَّه الذين لا يحصون لكثرتهم.

ويأمر اللَّه سبحانه نبيه بأن يخبر قومه جهله بأمور الغيب ومنها يوم القيامة:

﴿قُلْ إنْ أدري أقريبٌ ما تُوعَدونَ أمْ يَجْعَلُ لَهُ ربي أمداً. عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ على غيبه أحداً. إلاَّ من ارتضى مِنْ رَسولٍ فإنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصداً﴾.

والمراد بقوله سبحانه ﴿إن أدري أقريبٌ ما توعَدُونَ﴾ إن: نافية بمعنى ما، أي: ما أدري أقريب ما توعدون به من العذاب الدنيوي أو من عذاب يوم القيامة، أم يجعل له ربي ﴿أمداً﴾ أي أجلاً وزمناً بعيداً. فاللَّه سبحانه اختص بعلم الغيب وعلم الساعة التي تأتي فيها القيامة، وقد استثنى اللَّه

حالة واحدة من الغيب ﴿إلاّ من ارتضى من رسول﴾ أي إلاّ من يصطفيه اللّه لرسالته ونبوته فيطلعه على ما يشاء من الغيب حتى يُستدل على نبوته بما يخبر به من المغيبات فيكون ذلك معجزة له وآية دالة على نبوته. واللّه سبحانه أحاط هؤلاء الرسل بالحراس من الملائكة لحفظهم وهم الذين سماهم ﴿رصداً﴾.

ويأتي ختام هذه السورة بقوله سبحانه:

﴿لِيَعْلَمَ أنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالات ربِّهم وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شيءٍ عدداً﴾.

أي ليعلم رسول اللّه محمد أن الأنبياء قبله قد أبلغوا أقوامهم ما أمرهم اللّه بتبليغه من شرعه وأن اللّه أحاط علمه بما عند الرسل من الشرائع كما أنه سبحانه أحصى ما خلق فلم يفته شيء من خلقه ولم تخفُ عليه خافية.



بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ

شرح المفردات

المزّمّل : المتلفف بثيابه ، وقيل : الحامل أمراً عظيماً وهو النبوة ، وهو محمد ﷺ

قُم الليلَ إلاّ قليلاً : قم للصلاة والعبادة في الليل إلاّ قليلاً تنام فيه .

نِصْفَهُ أو انقُص منه قليلاً : أي قم نصف الليل للعبادة أو أقل من ذلك .

أو زِدْ عليه : أي تعبد أكثر من نصف الليل بقليل .

رتّل القرآن ترتيلاً : اقرأه في تأنٍّ وتثبت متأملاً حقائق الآيات .

قولاً ثقيلاً : كلاماً عظيماً جليلاً وهو القرآن .

ناشِئَة الليل : العبادة التي تنشأ به وتحدث ، والمعروفة بقيام الليل .

أشدُّ وَطأً : أثبت قياماً وأكثر موافقة .

أقوم قِيلاً : أصوب قراءة .

سَبْحاً طويلاً : تصرفاً وتقلباً في مهماتك .

تبتّل إليْهِ تَبتيلاً : إنقطع إليه في العبادة وتوجه إليه دون سواه .

فاتخذه وكيلاً : إعتمد عليه وفوض أمرك إليه . .

وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ

شَـرح المفـردَات

هَجْراً جميلاً : اعتزالاً حسناً لا جزع فيه .

ذَرْني : دعني ، بمعنى الوعيد ، أي اتركهم لي أتولى أمرهم .

والمكذِّبين : أي المكذبين بالقرآن .

أولي النَّعْمة : أهل التنعم .

ومهِّلهم قليلاً : أمهلهم إلى نزول العقوبة فيهم .

أنكالاً : قيوداً شديدة ثقالاً .

وطعاماً ذا غُصَّة : طعاماً يغص به آكله .

ترجُفُ الأرض : تضطرب وتتزلزل .

كثيباً : رملاً مجتمعاً .

مهيلاً : رخواً ليناً إذا وطئته القدم زلَّ من تحتها ، وقيل : منثوراً .

رسولاً : أي محمد ﷺ .

فأخذناه : عاقبناه .

أخْذاً وبيلاً : عقوبة شديدة ، والوبيل أي الشديد .

يجعل الولدان شيباً : يشيب به الصبيان من الهول والفزع .

مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

شَرح المفردَات

السماءُ منفطر به : أي السماء متشققة في ذلك اليوم .

كان وعده مفعولاً : كان وعد الله بحصول القيامة أمراً محتماً .

تذكرة : موعظة .

اتخذ إلى ربه سبيلاً : أي طريقاً يوصله إلى مرضاة ربه بالإيمان والطاعة .

تقوم : أي تتعبد وتتهجد .

أدنى من ثلثي الليل : زماناً أقل من ثلثي الليل .

ونصفه وثلثه : وتتعبد نصف الليل وثلثه .

وطائفة من الذين معك : ويتعبد في هذا المقدار جماعة من أصحابك المؤمنين .

والله يُقدِّر الليل والنهار : أي يعلم مقادير الليل والنهار على حقيقتها .

لن تُحصوه : لن تطيقوا ضبط وقت قيام الليل .

يضربون في الأرض : يسافرون للتجارة ونحوها .

يُقاتلون في سبيل الله : يجاهدون لنشر دين الله .

سُورَة المُزمِّل

ايضـاح و دروس

يُروى في سبب نزول سورة المزمل روايات عدة منها:

أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة تدبّر كيدها للنبي ﷺ لتصدّ الناس عن دعوته، فبلغ ذلك رسول الله فاغتم له وتزمل في ثيابه (أي آلتف بها) ونام مهموماً فجاءه الملك جبريل وقال: ﴿يا أَيُّهَا المُـزَّمِّل﴾ اي يا أيها الملتف بثيابه، ونداؤه بذلك تأنيس له وملاطفة على عادة العرب من اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التي هو عليها.

وقيل: لما جاء جبريل النبي في غار حراء خافه النبي ورجع إلى منزله مرتعداً وأوى إلى فراشه وقال: زملوني، زملوني، فبينما هو كذلك إذ جاءه جبريل وقال: ﴿يَا أَيُّهَا المدَّثِّر﴾، وعلى إثرها نزل: ﴿يَا أَيُّهَا المزمِّل﴾.

وقيل: إن النبي كان قد تزمل في ثيابه للصلاة واستعدّ لها فنودي ﴿يا أَيُّهَا المزمِّل﴾ بمعنى: يا أيها المستعد للعبادة.

وقوله سبحانه: ﴿قُمِ الليلَ إلاَّ قليلاً﴾ اي قُم الليل بالعبادة إلاّ قليلاً تنام فيه، والخطاب هنا للنبي ﷺ، إنها دعوة من أعالي السماء تدعوه لأن يترك النوم ويقوم الليل بالعبادة ويتهيأ للعبء الثقيل الملقى على عاتقه، وهو عبء الدعوة إلى الله.

وإذا كان الخطاب هنا للنبي فهو في الوقت نفسه خطاب إلى أتباعه المؤمنين ليشاركوه في العبادة وعبء الدعوة إلى الله، ولهذا نهج المسلمون نهج النبي ﷺ في قيام الليل واقتدوا به.

هذه هي باكورة التكاليف الإلّهية: بترك الفراش، والقيام ليلاً بعبادة

اللّه التي تشمل الصلاة وقراءة القرآن والتسبيح والتهليل والاستغفار.

ولا بد من الإشارة إلى أن العبادة في الليل هي بمثابة التدريب العسكري للمبتدئين بدخول الجيش، ولكن العبادة هي تدريب من نوع آخر، إنها تدريب روحي تصل المؤمنين بالخالق، وتقوي أرواحهم وتنشطها، وتجعل نفوسهم طيعة لقبول الأوامر الإلّهية، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى فإن العبادة في الليل تورث الأبدان صلابة، وتدرّبها على تحمل الخشونة بحيث تصبح النفس بعدها مهيأة لتقبّل أعباء الحياة برضى وصبر، وتجنب ما عليه المترفون من الراحة والانغماس في الملذات التي تضعف الهمم، وتصرفها عن جسام الأمور، فالعبادة في الليل هي مدرسة المؤمنين الأولى التي تخرّج منها المسلمون الأولون، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، وهي الأمة التي فتحت البلدان، ونشرت الهدى والعدالة في أقطار المعمورة.

فاللّه سبحانه يقول في شأن العبادة:

﴿قُم الليْلَ إلاَّ قَليلاً. نِصْفَـهُ أو انْقُصْ مِنْهُ قَليـلاً. أوْ زِدْ عَليه وَرَتِّـلِ القرآنَ تَرْتيلاً. إنَّا سَنُلْقي عَلَيْك قَوْلاً ثقيلاً﴾.

فالواجب أن تكون العبادة في الليل طويلة مقدار نصف الليل أو أقل من ذلك بقليل بحيث لا تقل عن ثلث الليل، حتى يكون لها التأثير المطلوب والفعل الناجح في صقل الروح واتصالها بالخالق، أو تزيد على نصف الليل بما دون الثلثين خشية أن يؤدي القيام الطويل بالعبادة إلى عكس المراد منه، فيضعف الجسم ولا يعود بعدها قادراً على تحمل أعباء الحياة[١]. ومعنى

---

(١) روي أنه لما نزلت هذه الآيات شرع المسلمون بقيام الليل لعبادة اللّه سنة أو أكثر حتى ورمت أقدامهم فأمر اللّه تخفيف ساعات قيام الليل كما جاء في آخر هذه السورة.

﴿وَرَتِّلِ القُرآنَ تَرْتيلاً﴾ أي اقرأ القرآن قراءة إمعان وتدبر بتبيين حروفه وقراءته بتمهل آية إثر آية، ولا تسرده سرداً يضيع معه التدبّر وفهم المعنى، ويشمل ذلك التنغم بلا تكلف، وفي الحديث الشريف «زَيِّنوا القرآن بأصْواتكم».

﴿إنَّا سَنُلْقي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ أي سننزل عليك يا محمد كلاماً عظيماً جليلاً ـ وهو القرآن ـ له الأرجحية على كلام البشر لما اختص به من هداية وحكمة وفصاحة وبيان، أو سيكون القرآن ثقيلاً شديد الوطأة على الناس لما فيه من ترك ما ألفوه من العقائد الباطلة، ونبذ ما ورثوه من التقاليد الفاسدة.

ويبين اللّه الحكمة من قيام الليل للعبادة وقراءة القرآن فيه:

﴿إنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً. وَإِنَّ لَكَ في النَّهارِ سَبْحاً طَويلاً فَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إلَيْهِ تَبْتِيلاً. رَبُّ المشْرِقِ وَالمغربِ لا إلَـه إلاَّ هُو فَاتَّخِذْهُ وكِيلاً﴾.

فناشئة الليل هي ساعات الليل كلها وما ينشأ فيها من الطاعات كتلاوة القرآن والصلاة والعبادة فهي ﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ أشد ثبات قدم وبعداً عن الاضطراب وأثقل على المصلي من ساعات النهار. وقرئت ﴿وِطَاءً﴾ بكسر الواو وفتح الطاء بمعنى الموافقة أي أن الصلاة في الليل أكثر موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ وأصوب قولاً، فهدوء الأصوات في الليل وسكون الحركة فيه أجمع للتدبر في معاني القرآن والخشوع في الصلاة.

﴿وَإِنَّ لَكَ في النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ أي إن لك في النهار تصرفاً في حوائجك وفراغاً طويلاً تتسع به فإن فاتك في الليل شيء من ذكر اللّه فلك في النهار فراغ لاستدراك ذلك ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على ذكر ربك الذي

تعهدك بالخلق والتربية ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي انقطع إليه في العبادة وأخلص له النية ولا تشرك به غيره، والتبتل: الإنقطاع عن الدنيا إلى الله تعالى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو سبحانه مالك لمشارق الأرض ومغاربها لا إله غيره ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي فاركن إليه وحده واستسلم له واعتمد عليه.

ثم يأمر الله نبيه بالصبر على ما يلقاه من قومه من التكذيب والإعراض، وأن يهجرهم هجراً لا يشوبه أذى ولا غضب أو نزاع أو عقاب.

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يقولُونَ. واهْجُرْهُمْ هَجْراً جَميلًا﴾.

ويعقّب الله على ذلك بالتهديد لهؤلاء المكذبين:

﴿وَذَرْنِي والمُكَذِّبينَ أُولي النَّعْمَة وَمَهِّلْهُمْ قَليلًا﴾.

أي دعني ومن كذّبك من أصحاب النعم في الدنيا والترف لا تهتم بهم، ولا تفكر في أمرهم فأنا أكفيكهم وحسابهم عندي، وأمهلهم إمهالاً قليلاً فيحل بهم عذابي عاجلاً أم آجلاً. فهؤلاء المكذبون سماهم القرآن: ﴿أُولي النَّعْمَةِ﴾ فهم رفضوا دين الله لأنهم يريدون الاستئثار بكل ما أنعم الله عليهم لأنفسهم ولعيالهم، بينما التصديق برسالة الله والعمل بها، يستلزم التخلي عن بعض ملذاتهم وبعض ما يرفلون به من النعم لصالح غيرهم من الطبقات المحرومة وهذا هو سرّ موقفهم المعادي لدعوة الإسلام.

هؤلاء المكذبون لهم في الآخرة قيودٌ ونارٌ وطعام لا يُستساغ وعذاب مؤلم:

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحيماً. وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَليماً﴾.

فالأنكال جمع نِكل وهو القيد الثقيل، والجحيم دار العذاب في الآخرة

التي تشتعل بالنيران، والطعام ذو الغصة هو ما أعده الله في تلك الدار من الطعام المنكر البشع الذي ينشب في حلوق آكليه فيغصون به بالإضافة إلى ذلك لهم عذاب مؤلم موجع.

ويصف الله مشهداً من أهوال يوم القيامة:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالجِبَالُ. وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾.

فالأرض والجبال تضطرب وتتزلزل بمن عليها، وتصبح الجبال تِلالاً من الرمل إذا حرك أسفلها انهالت وتتابعت في الانهيال.

ثم يخاطب الله المكذبين بدعوة رسوله محمد ﷺ مهدداً إياهم، ومُذكراً لهم بما حلّ بفرعون وقومه جزاء عصيانهم لرسوله الذي أرسله إليهم:

﴿إنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُم كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً. فَعَصَى فِرْعَونُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾.

فالرسول محمد ﷺ يشهد يوم القيامة بما صدر عن قومه من كفر وعصيان، وقد أرسله الله إلى قومه كما أرسل إلى فرعون رسولاً وهو موسى عليه السلام وقد عصى فرعون وقومه موسى فعاقبهم الله عقاباً شديداً بأن أهلك فرعون وجنوده غرقاً.

كما يذكّر الله الكافرين بأهوال يوم القيامة، وما هم مقبلون عليه من عذاب:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً. السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعولاً﴾.

أي كيفَ تقون أنفسكم ـ إن بقيتم على كفركم ـ عذابَ يوم تشيب له

رؤوس الأطفال من شدة الهول والفزع، والسماء تكون في ذلك اليوم متشققة من شدة ذلك اليوم وعظيم هوله، ويؤكد الله ذلك الأمر بأنه واقع لا محالة ﴿كان وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ أي كان وعد الله واقعاً لا محالة وهو لا يخلف وعده.

ثم يعود القرآن ليبين الغاية من تلك الآيات السابقة:

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾.

فهذه الآيات السابقة التي فيها تخويف للكفار يسوقها الله للعظة والعبرة والتذكير لمن شاء أن يتعظ فيسلك الطريق المؤدي إلى رضاء ربه.

وأخيراً يختم الله هذه السورة بآية طويلة نزلت بعد مطلع هذه السورة بعام وفيها يخبر الله المؤمنين بأنه يعلم قيامهم بالليل للعبادة وقد قَبِلَهَا منهم، وأنه سبحانه خفف عنهم أمره في قيام الليل، يقول تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّك يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ واللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ والنَّهارَ، عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُم فَاقْرأوا مَا تَيَسَّر مِنَ القُرآنِ. . ﴾.

فالله سبحانه يقول: فعلت أيها النبي ومن معك من المؤمنين ما أمرناكم به من قيام ثلث الليل ونصفه وأقل من الثلثين في العبادة ونحن نعلم ذلك ﴿واللَّهُ يُقَدِّرُ الليلَ وَالنَّهارَ﴾ والله يحدد امتداد كل منهما ويعلم أجزاءهما وساعاتهما ﴿عَلِمَ أن لَنْ تُحْصُوهُ﴾ علم أنه لا يمكنكم إحصاء كل جزء من أجزاء الليل والنهار ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ إذ عجزتم وضعفتم عن القيام بالليل وتأتي التوبة بمعنى الرجوع، أي رجع ربكم بكم إلى التخفيف ﴿فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّر مِنَ القرآنِ﴾ قيل المراد بذلك الصلاة لأن قراءة القرآن من أعظم أركانها، أي أدوا ما تيسر لكم من الصلاة، أو بمعنى: اقرأوا ما تيسَّر

لكم من القرآن من دراسته وتلاوته بإمعان وَتَدَبُّر.

ويتابع القرآن فيذكر الأسباب المخففة لرفع الوجوب عن قيام الليل في تتمة الآية السابقة:

﴿عَلِمَ أن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى﴾ فالمؤمنون قد يطرأ عليهم أمراض وعلل يتعذر عليهم قضاء قسم من الليل بالعبادة.

﴿وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ في الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضلِ اللّه﴾ هؤلاء هم التجار والمسافرون في البلاد يطلبون الرزق وكسب المال مما هو فضل من اللّه ونعمة، فهؤلاء قد تحول أسفارهم والمشاق التي تلحقهم دون قيام الليل.

﴿وآخرونَ يُقاتِلُونَ في سَبِيلِ اللّهِ﴾ وهم الذينَ يعملون على نشر الإسلام والدعوة إليه ومحاربة من يتصدى لمنعهم من أداء مهمتهم هذه، أو الدفاع عن وطنهم.

ثم يقول سبحانه: ﴿فَاقْرأوا ما تَيَسَّر مِنْهُ وَأقيموا الصَّلاَةَ وَآتوا الزكاة﴾ فقراءة ما تيسّر منه، أي من القرآن، وإقامة الصلاة هي توفيتها حقها من خشوع وإخلاص مما يحول بين الإنسان واقتراف الفواحش والمنكرات، وإيتاء الزكاة هي إخراج الأموال الواجبة على المسلمين من ثرواتهم ودفعها للمستحقين لها من الفقراء وغيرهم من المعوزين.

ويضيف اللّه إلى ذلك قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ حَثٌّ على إنفاق المال في رضاء اللّه من الصدقات ووجوه الخير، وهنا يجعل اللّه إنفاق المال في هذا السبيل بمنزلة الإقراض للّه، واللّه غني عن العالمين الذي له مُلك السماوات والأرض ومن فيهن، وإنما جاء التعبير في هذه الصورة ترغيباً

في الإحسان الذي سيرده الله سبحانه للمحسن أضعافاً مضاعفة.

ويختم الله هذه السورة بقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خيراً وَأَعْظَمَ أَجْراً، واسْتَغْفِرُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غفورٌ رَحِيمٌ﴾.

فالله سبحانه يخبر المؤمنين بأنهم سيجدون في الآخرة ثواب ما قدّموا في دنياهم من خير، سواء أكان صدقة أم عبادة وطاعة، وهذا الثواب سيجدونه خيراً وأفضل مما عملوه في دنياهم. والمراد بقوله تعالى: ﴿وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ أي إن الأجر المخصص لهم في الآخرة إذا قيس بالعمل الذي قدموه في الدنيا يجدونه أعظم وأفضل من عملهم. ﴿واسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي اطلبوا الغفران لذنوبكم ولتقصيركم في العبادة إنه سبحانه يغفر ذنوب من استغفره ويرحم عبده التائب إليه.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾
وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴿٥﴾ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ
فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ﴿١٠﴾
ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾
وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ

شرح المفردات

المدَّثِّر : المتلفف بثيابه .

قُمْ فأَنْذِر : قم قيام عزم وتصميم ، وبلغ رسالة ربك ، وحذرهم من العذاب .

وربَّك فَكبِّر : خصص ربك بالتكبير والتعظيم .

وثيابك فَطهِّر : طهر ثيابك من النجاسة ، أو طهر نفسك من ذميم الأفعال والآثام .

والرُّجْزَ فاهْجُرْ : أهجر المآثم الموجبة للعذاب .

ولا تَمنُنْ تَسْتَكثِر : لا تعطِ لتأخذ أكثر مما أعطيت .

نُقِرَ في النَّاقور : نفخ في الصور، والصور مثل القرن (البوق) ينفخ فيه إيذاناً بالبعث .

ذَرْني : دعني وَكِلْ أمره إليّ .

خَلَقْتُ وحيداً : خلقته وحدي لم يشاركني في خلقه أحد .

مالاً ممدوداً : مالاً كثيراً وفيراً .

وبنين شهوداً : أبناء حاضرين معه لا يفارقونه ولا يسافرون للتكسب وذلك لغناهم عنه .

مَهَّدْتُ له تمهيداً : بسطت له المال والجاه والرياسة .

إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟

شرح المفردات

لآياتنا عنيداً : جاحداً معانداً لما جاء به النبي ﷺ من الوحي .

سأرْهقه صَعوداً : سأذيقه عذاباً شاقاً لا يطاق .

قدَّر : هيأ في نفسه قولاً طاعناً .

فَقُتِلَ : لعن أو قبح .

نَظَرَ : تأمل فيما هيأ من الطعن .

بَسَرَ : قطَّب وجهه وتغير لونه .

أَدْبَرَ : اعرض عن الحق .

سِحْرٌ : السحر هو الخديعة وإظهار الباطل في صورة الحق .

يُؤْثَرُ : يروى وينقل عن غيره .

سأُصْلِيه سَقَر : سأدخله النار ، وسقر من أسماء جهنم .

لا تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ : تأتي على كل شيء .

لَوَّاحَةٌ للبَشَر : مسودة للجلود محرقة لها ، والبشر جمع بشرة وهي ظاهر جلد الإنسان .

عليها تِسْعَةَ عَشَر : أي من الملائكة يتولون أمرها .

عِدَّتَهُمْ : عددهم .

فِتْنَةً : اختباراً لهم .

لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ
لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ
﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ
أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي
جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾

شرح المفردات

ليستيقن الذين أوتوا الكتاب : ليوقن الذين أعطوا التوراة والإنجيل أن عدد خزنة جهنم موافق لما في كتبهم .

ولا يرتاب : ولا يشك .

في قلوبهم مرض : هم المنافقون .

جنود ربك : أي الملائكة المختصون بعذاب أهل النار .

كلَّا ، والقمر : كلا بمعنى ردع، والواو للقسم ، وقد أقسم سبحانه بالقمر .

والليل إذْ أدبَرَ : وأقسم سبحانه بالليل إذا ولّى .

والصُّبح إذا أسْفَرَ : وأقسم سبحانه بالصبح إذا أضاء .

إنَّها لإحْدَى الكُبَر : إنها لإحدى عظائم العقوبات وهي النار .

نذيراً للبَشر : لأجل إنذار البشر ، والإنذار إخبار فيه تخويف .

يَتقدَّم أو يتأخَّرَ : يتقدم إلى الخير والطاعة ، أو يتأخر إلى الشر والمعصية .

كُلُّ نفْسٍ بما كَسَبَتْ رَهينَةٌ : كل نفس مرتهنة بكسبها ، مؤاخذة على عملها .

ما سلككم : ما أدخلكم .

قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

شرح المفردات

نخوض مع الخائضين : نخالط أهل الباطل في باطلهم ونجاريهم فيه .

نُكَذِّبُ بِيَوم الدِّين : لم نصدق بيوم القيامة ، يوم الجزاء على الأعمال .

أتانا اليقين : جاءنا الموت .

التَّذْكِرَةِ : مواعظ القرآن التي تذكّر بالآخرة .

مُعرضين : جاحدين لها ، تاركين العمل بها .

كأنهم حُمُرٌ : كان هؤلاء الكفار حمر وحشية ، وحُمُر جمع حمار .

مُسْتَنفِرَة : نافرة مذعورة .

قَسْوَرَة : هم الرماة والصيادون ، وقيل : الأسد .

صُحُفاً مُنَشَّرةً : صحفاً منشورة تقرأ على الناس .

إنّه تذكرة : أي إن القرآن عظة .

فمن شاء ذَكَرَهُ : فمن شاء اتعظ به .

وما يذكرون : وما يتعظون .

أهْلُ التقوى : أهل لأن يتقى ويخاف .

أهلُ المغفرة : أهل لأن يغفر لمن تاب .

سُورةُ الْمُدَّثِّر

ايضـــاح و دروس

هذه السـورة تحث رسـول الله على إنذار قـومه وتـرك ما لا يصـح أن يصدر منه وأن يترك من جحد فضل الله عليه، كما أخبرت هذه السـورة عن صفات المجرمين ومصيرهم في النار يوم القيامة.

وهـذه السـورة من أوائـل ما نـزل من القرآن، وبيـان ذلـك أن الملك جبريل بعد أن لقّن النبي محمداً ﷺ أوائـل سورة ﴿إقـرأ باسْـمِ ربِّـك الذي خَلَق﴾ وحصل له في بادىء الأمر ما حصل من الخـور والتأثـر، تخلّف عنه الملك جبـريل بعض الـوقت، ريثما يهـدأ روعه، وليحصـل له الحنين إلى الوحي. ويُروى عن جابر بن عبد الله، أنه سمع رسول الله يحدّث عن فترة الوحي (أي انقطاعه) وعن كيفية رجوعه إليه، فقال رسول الله ﷺ: فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السـماء فرفعت رأسي قِبلَ السـماء فـإذا الملك الذي جاءني بحراء (غار حراء) جالسـاً على كرسيّ بين السـماء والأرض فجُئِثْتُ منه (أي فَزِعْتُ منه وخِفْتُ)، فرجعت فقلت: زمّلوني، زمّلوني، فدثّروني فأنزل الله:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ. قُمْ فَـأَنْذِرْ. وَرَبَّـكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالـرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ثم تتابع نزول الوحي[1].

والمدثر هو المتلفف بثيابه لنوم أو اسـتدفاء، والدثار هو ما يُلبس فـوق الثياب الداخلية الملاصقة للبدن، أما الداخلية هذه فتسمى الشعار.

فالله سبحانه خاطب نبيه بقوله: ﴿يا أيُّها المدَّثِّر. قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ أي يا أيها

---

(١) رواه البخاري ومسـلم.

المتغطي بثيابه، أو بمعنى: يا أيها المدثر بلباس النبوة والمعارف الإلٓهية ﴿قُمْ﴾ وانشط من مضجعك هذا، فإن العناية الإلٓهية قد رشحتك لمقام سام، ونشر دين عام ﴿فَأَنْذِرْ﴾ أي خَوِّف قومك، وحذرهم من العذاب إن لم يسلموا، فهنا تنبيه للخطر القريب الذي يترصد المنغمسين في الضلال إذا استمروا على ضلالهم، وتحذير لهم إذا لم يستجيبوا للدعوة إلى الإسلام.

ويتابع الله مخاطباً نبيه: ﴿وربَّك فَكَبِّرْ﴾ أي خصه وحده بالكبرياء، وأفرِدْه بالعظمة والمجد. هذا التصور لمقام الألوهية يقوي قلب النبي ﷺ، فيستصغر كل كيد، وكل قوة تعترض سبيله، فيبلغ دعوته وهو واثق من النصر مستصغر للصعاب، فالله الذي يدعو الناس إلى عبادته هو أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم، وهكذا حال المسلم فبمجرد أن يتلفظ بتكبير الله، ويستشعر معناه، يهون أمامه كل صعب، ويتجاوز كل خطر.

ثم يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿وثيابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي طهر ثيابك من الأنجاس بالماء، فقد كان المشركون لا يتطهرون فأمره سبحانه أن يتطهر ويطهر ثيابه، وقيل: إن المراد بذلك هو تطهير النفس من أدران الأخلاق الذميمة، ومن المعتقدات الباطلة، والمعاصي والخطايا. فالعرب جرت عادتهم أن يقولوا: فلان طاهر الثياب، أو نقي الثياب، يريدون نقي النفس من الذنوب ومن دنس الأخلاق، وإذا كان خبيث العمل قالوا فلان خبيث الثياب. والنبي ﷺ لم يُعرف عنه خصلة ذميمة أو اقتراف لمعصية وإنما المراد بذلك توجيه الخطاب إلى قومه ليتطهروا من المعاصي والأخلاق الذميمة.

ويقول الله لنبيه ﷺ أيضاً: ﴿والرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي اهجر ما يؤدي إلى عذاب الله، والرجز في اللغة: العذاب ثم أصبح يطلق على كل ما يؤدي إلى العذاب، من الشرك وعبادة الأصنام والأوثان، واقتراف المعاصي والآثام. وليس معنى هذه الوصية أن النبي ملوّث بشيء من دنس الوثنية، أو العيوب

أو المعاصي، لا، فقد ثبت بالنقل المتواتر أن النبي ﷺ لم يسجد لصنم قط قبل الرسالة، ولم يتلوث بخلق ذميم، ولم يقترف أية معصية، وما أوصاه اللّه به ما هو إلاّ من قبيل الحض على الاستمرار على ما هو عليه من الصفات السامية، هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانية فإنه خطاب لأمته ليأتمروا بهذا الأمر وينفذوا مضمونه فيهجروا كل معصية، وينبذوا كل إثم عالق بهم.

ويقول اللّه لنبيه ﷺ: ﴿ولا تَمنُنْ تَسْتَكْثِرْ﴾ والمنُّ هو أن يعدد الإنسان للغير ما يفعله له من الخير، والمعنى: إنك ستفعل الكثير في سبيل الدعوة فلا تمنن على الناس بما تعلمهم من أمر الدين كالمستكثر لذلك التعليم ومعتبراً أن ما تفعله كثير. وقيل: لا تمنن على ربك بما تفعله من الطاعات كالمستكثر لما تفعله. ويأتي المن بمعنى العطاء، أي لا تعطِ شيئاً منتظراً أن تأخذ بدله ما هو أكثر مما أعطيت.

كما يقول اللّه لنبيه ﷺ أيضاً: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي لوجه ربك اصبر على أذى قومك، واصبر على أداء فرائض اللّه وعلى الطاعات واصبر على كل مصائب الحياة. فالصبر هو الوصية التي وصى اللّه بها نبيه، لأنه سلاح الدعوة إلى اللّه، وذلك لما يصادفه الداعي من أذى واضطهاد وسخرية، فبدون الصبر لا يستطيع الداعي الاستمرار في دعوته وبلوغ هدفه.

ويذكّر اللّه الكافرين بيوم القيامة وما ينتظرهم فيه من مصير سيء:

﴿فإذا نُقِرَ في النَّاقُورِ. فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ والنقر في اللغة: الصوت، والمراد به هنا النفخ في الصور، والصور هو مثل القرن يُنفخ فيه فيجعل اللّه سبحانه ذلك سبباً لقيام الأموات وعودة الأرواح إلى أجسامها. فهذا اليوم هو عسير على الكافرين لا مجال لليُسر فيه، لأنهم يُناقشون فيه الحساب، ويُعطون كتبهم بشمالهم، وتسودُّ وجوههم

بانتظار العقاب.

ثم ينتقل القرآن إلى مواجهة رجل من المكذبين برسالة النبي ﷺ وهو الوليد بن المغيرة الذي كان من أشراف قريش ومن أغنيائها، وكان له دور رئيسي في إيذاء النبي ﷺ وفي التهجم على القرآن الكريم، يقول تعالى:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً. وَبنِينَ شُهُوداً. وَمَهَّدْتُ لَه تَمْهيداً. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أزيدَ. كَلَّا، إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنا عَنِيداً. سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾.

فالله سبحانه يقول لنبيه مواسياً: ﴿ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ أي دعني وحدي مع هذا المكذب برسالتك وكِلْ أمره إليَّ فإني كافٍ في الانتقام منه، أو بمعنى: خلقته وحيداً لا مال له ولا ولد ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴾ أي مالاً كثيراً يمد بعضه بعضاً بالكثرة والنماء ﴿وَبَنِينَ شُهُوداً﴾ وبنين حضوراً معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم ويستأنس بهم لا يغيبون عنه لكسب المال فهم كانوا في وفرة منه ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾ أي بسطت له الرياسة والجاه العريض حتى لُقِّب بريحانة قريش ﴿ثُمَّ يطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ فهذا المكذب لشدة حرصه وطمعه يطمع في زيادة ما أنعمت عليه من هذه النعم ﴿كلَّا﴾ أي ردع له عن ذلك الطمع ﴿إنَّه كَانَ لآياتِنا عَنيداً﴾ إنه كان معانداً كافراً بما أنزلنا من القرآن على رسولنا محمد، هذا المكذب: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ سأحمله مشقة من العذاب لا راحة له فيها كمن يكلف بالصعود في الجبال الوعرة الشاقة.

ثم يصف الله نفسية هذا المكذب وقسمات وجهه عند افترائه على القرآن وقوله فيه بأنه سحر:

﴿إنَّه فَكَّر وَقَدَّرَ﴾ أي إنه فكر وقدّر في نفسه ما يقوله في القرآن.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي لعن كيف قدَّر ذلك الافتراء الباطل.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كيف قَدَّرَ﴾ تكرار للمبالغة في التعجب منه.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ بأي شيء يطعن في القرآن.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ ثُمَّ قَطَّبَ ما بين عينيه وكلح وجهه وتغير لونه.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ واسْتَكبَرَ﴾ ثُمَّ أعرض عن الحق واستكبر عن اتّباعه.

﴿فقال: إنْ هَذَا إلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي ما هذا القرآن إلا سحر يأخذه عن غيره[1].

﴿إنْ هَذَا إلَّا قَوْلُ البَشَرِ﴾ أي إن القرآن ليس من كلام الله بل هو من قول البشر.

هذه صورة يقدمها القرآن لبعض النفوس التي تعرف الحق وتراه واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن لا تتبعه إيثاراً للجاه، ومحافظة على المكانة الاجتماعية التي تتبوأها في قومها، فبمجرد تغيير دينها

---

(١) يروي أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي فقرأ عليه القرآن وكأنه رق له فقالت قريش: غيَّر الوليد دينه وستبعه قريش كلها في ذلك، فقصد إليه أبو جهل يستوضحه ويستطلع الأسباب التي جعلته يميل إلى القرآن مغرياً له بالمال مثيراً نخوته بدينه القديم فأجابه الوليد: «قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً» فقال أبو جهل: فقل فيه قولاً يُبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزها وبقصيدها مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى عليه، قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني أفكر فيه، فقال: ﴿هذا سحر يُؤثر﴾ يؤثره عن غيره، فنزلت الآيات ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ وما بعدها.

ستصادف العداء من قومها والهجران منهم، ولهذا تؤثر الضلال على الهدى، هؤلاء الذين عرفوا الحق وخانتهم الشجاعة لإعلان رأيهم سيكون مصيرهم كمصير الوليد بن المغيرة الذي صوره اللّٰه بهذه الصورة المثيرة للسخرية ثم عقّب عليها بما سيناله من عقاب في الآخرة:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَر. وما أدْرَاكَ مَا سَقَرُ. لا تُبقي وَلاَ تَذَرُ. لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ. عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

فهذا المكذب سيدخله اللّٰه إلى سقر، وسقر من أسماء النار التي يُعذَّب بها العصاة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ وأي شيء أعلمك ما سقر فهي من شدة النيران بحيث لا يتصورها إنسان ﴿لا تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ﴾ فهي لا تبقي على شيء يلقى فيها إلاّ أهلكته ولا تترك من فيها ميتاً ولكنها تحرقهم كلما جُدِّد خلقهم. ﴿لَوَّاحَةٌ للبشرِ﴾ والبشر جمع بَشرة وهي ظاهر الجلد، فهذه النار محرقة للجلود مسوِّدة لها، ويجوز أن تكون البشر بمعنى الناس، ولوّاحة من لاح يلوح أي أن جهنم تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة لعظمها وهولها كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الجحيمُ لِمنْ يَرَى﴾.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي يلي أمر جهنم تسعة عشر ملكاً من الملائكة.

لقد تلقى الكافرون هذه الحقائق عن الآخرة بسخرية حتى قال أبو جهل عن هؤلاء الملائكة التسعة عشر. أما يستطيع كل عشرة منكم أن تغلب منها واحداً. وأما أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فقد سأل جماعة منهم النبي ﷺ عن خزنة جهنم المتولين أمرها فكان أن أجاب اللّٰه بعددهم.

ولقد بيّن اللّٰه الحكمة من كشف هذا الجانب من الغيب بقوله:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً، وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً للذينَ كفروا لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتوا الكِتَابَ وَيَزْدَادَ الذين آمنوا إيماناً ولا يَرْتَابَ الذين أُوتوا الكتابَ والمؤمنونَ وَلِيَقُولَ الـذين في قلوبهم مَرَضٌ والكـافرون مـاذا أرادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً، كَذَلِكَ يُضِـلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْـدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَـا يَعْلَمُ جُنودَ رَبِّكَ إلاّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَـرِ﴾.

فالله ما جعل المتولين على أمر جهنم، القائمين بتعذيب من فيها من الكفرة والعصاة إلاّ ملائكة لأنهم أبعد الخلق عن معصية الله ولأن قوتهم أعظم من قوة الإنس والجن ولهم القدرة على تنفيذ ما يأمرهم الله به من الأمور العظام ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُم إلاَّ فِتْنَةً لِلَّذينَ كَفَرُوا﴾ أي وما جعل الله عددهم تسعة عشر إلاّ سبب فتنة وضلالة للذين كفروا حيث قابلوا هذا العدد بالاستهزاء وأظهروا استعدادهم لمقاومتهم ومغالبتهم، وقيل معنى: ﴿إلاَّ فِتْنَةً﴾ إلا عذاباً كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم عَلى النَّار يُفْتَنُون﴾ أي يعذبون.

﴿لِيَسْتَيقِنَ الَّذين أُوتُوا الكِتابَ﴾ أي ليحصل اليقين عند اليهود والنصارى بنبوة محمد لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم الدينية ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إيمَاناً﴾ أي ويزداد المؤمنون بنبوة محمد إيماناً على إيمانهم سواء من آمن من أهل الكتاب أو من العرب ﴿وَلا يَرْتابَ الَّذِين أُوتُوا الكِتَابَ وَالمؤمِنُونَ﴾ ولا يشك أهل التوراة والانجيل والمؤمنون بالله من أمة محمد من أن القرآن كتاب الله، وهذا توكيد لما سبق ﴿وَلِيقُولَ الَّذِينَ في قُلُوبهم مَرَضٌ﴾ وهم المنافقون وضعاف الإيمان من العرب ﴿والكافرون﴾ والجاحدون لنبوة محمد ﴿مَاذَا أَرَاد اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ أي ماذا أراد الله بهذا العدد القليل من الملائكة حتى يخوفنا به، هذا العدد المستغرب استغراب المثل المتداول بين الناس ومرادهم إنكاره من أصله.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ كذلك: إشارة إلى تكذيب الكافرين وإيمان المؤمنين. أما إضلال الله لقوم وهدايته لقوم آخرين فليس معناه أن يُجبر كل فريق ويُكْرِهَهُ على سلوك أي الطريقين شاء من طريقي الخير والشر، كلا، فإن هذا الإكراه منافٍ للعدل الإلٓهي ولا ينسجم مع نصوص القرآن التي تصرح بأن الإنسان له إرادة واختيار هما مناط التكليف، وقد جاء في القرآن ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبكم فَمَنْ شَاء فليؤمن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر﴾ الكهف: ٢٩. وجاء أيضاً: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالحاً فَلِنَفْسه وَمَنْ أَسَاءَ فعليها وما ربُّك بظلَّامٍ للعَبيد﴾ فصلت: ٤٦. وورد أيضاً: ﴿إن اللَّه لا يُغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنْفُسِهِم﴾ الرعد: ١١.

فمعنى يضل اللّه من يشاء ويهدي من يشاء أنه تعالى يبين أمام البشر السبيلين: سبيلي الخير والشر والإنسان له أن يختار لنفسه ما يوافق استعداده وتجره إليه إرادته فيفضل أحد السبيلين على الآخر. فالإنسان محاسب على هذا الجزء من الاختيار لأن الذي سلك سبيل الشر يسلكه بكامل قواه العقلية، وبكامل إرادته وحريته واختياره، ومن هنا نشأة الجزاء والحساب. كذلك في الجانب المقابل فإن الذي يسلك سبيل الهداية إنما يسلكه بكامل إرادته ونتيجة إيمان ويقين.

لقد كشف اللّه لنا عن طريق الهدى وحدد لنا نهجاً نسلكه فنهتدي ونسعد، كما بيّن لنا سبيل الضلال الذي نضل ونشقى إن سلكناه، ولم يكلفنا سبحانه أن نعلم ما وراء ذلك من أسرار القدر والغيب لأنه من الأمور التي اختص بها والتي لا تصل العقول إلى إدراك كنهها.

ولنرجع إلى تتمة الآية السابقة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إلَّا

﴿ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ فهنا بيان بأن خزنة جهنم وإن كانوا تسعة عشر فليس ذلك عن قلة في جنود اللّه، فإن جنوده لا يعلمهم إلاّ هو ولكن هذه القلة من الملائكة تكفي لأداء ما هي منوطة به. ﴿وما هي﴾ أي سقر ﴿إلاّ ذكرى للبشر﴾ أي تذكرة ذُكِّر بها البشر ليحذروا معصية اللّه.

وبعد هذا ينتقل القرآن إلى إنذار العصاة:

﴿كَلاَّ، والقَمَرِ. والليلِ إذْ أدْبَرَ. والصُّبْحِ إذا أسْفَرَ. إنَّها لإحْدى الكُبَرِ. نَذيراً لِلْبَشَرِ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أنْ يَتَقَدَّمَ أو يَتَأَخَّرَ﴾.

كلا، أي ردع للمكذبين بعذاب الآخرة، ثم أقسم اللّه بالقمر، وقسمه تعالى بالشيء دليل على أهمية المُقسَم به ودليل على عظيم قدرته سبحانه، وكذلك أقسم بالليل إذا ولّى ذاهباً وبالصبح إذا أضاء. وذهاب الليل وضياء الصبح هما من تأثير دوران الأرض حول نفسها، هذا الدوران من الآيات الباهرة التي تدل على عظمة القدرة الإلّهية، فلولا هذا الدوران لما كان هناك ليل ونهار ولهلك من على الأرض من الحرّ أو البرد.

لقد أقسم اللّه بهذه الأمور على أن ﴿سقر﴾ وهي جهنم ﴿إحدى الكُبَرِ﴾ والكبر مفردها كبرى أي أنها من الأمور العظام ﴿نذيراً للبشر﴾ أي محذرة لهم من نفسها ومخوفة إياهم من عذابها. ثم يقول سبحانه: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَو يَتَأَخَّرَ﴾ أي لمن شاء أن يتقدم في طاعة اللّه أو يتأخر عنها فيقع في الشر والمعصية. وفي قوله: ﴿لمن شاء﴾ دليل على أن الإنسان غير مجبر على سلوك طريق معين بل له الخيار في أعماله فيختار طريق الهدى أو طريق الضلال.

وبعد هذا يبين القرآن حقيقةً طالما ضل البشر في مفهومها وكانت سبباً في إرهاق النفس الإنسانية، وهذه الحقيقة: أن كل نفس مرهونة بكسبها ومأخوذة بعملها لا تحمل خطيئة غيرها، يقول تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

فهذه الآية إعلان واضح من الله بأن النفس الإنسانية ليست مؤاخذة بخطيئة آدم ولا بخطايا آبائها وأجدادها كما يعتقد بعض أتباع الأديان الأخرى، كما أن كل نفس لا ينفعها وهي آثمة أعمال آبائها وأجدادها ولو كانوا على درجة عالية من الصلاح والتقوى.

ثم ينتقل بنا القرآن إلى ذكر الأعمال التي تؤدي إلى عذاب الله:

﴿إِلَّا أَصْحَابَ اليَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ. عَنِ المجْرِمِينَ: ما سلكَكُمْ في سَقَرَ. قالوا: لَمْ نَكُ مِنَ المصلّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدِّين. حَتى أَتَانَا اليَقِينُ. فما تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

فأصحاب اليمين، وأصحاب الميمنة عنوان يطلقه القرآن على السعداء في الآخرة، كما يطلق لقب أصحاب الشمال، وأصحاب المشأمة على الأشقياء في الآخرة.

فأصحاب اليمين يتساءلون فيما بينهم عن سبب عذاب المجرمين في النار، فيجيب بعض المؤمنين ممن سبق لهم الحوار مع هؤلاء المجرمين وسألوهم عن سبب عذابهم: ﴿ما سلككم في سقر﴾ أي ما أدخلكم إلى

النار، فأجابوا بأن العذاب الذي يلاقونه كان لأمور أربعة:

١) ﴿قالوا: لم نَكُ مِنَ المصلّينَ﴾ فالصلاة هي عماد الدين، وهي العلاقة التي تنشئها النفس الإنسانية بينها وبين خالقها اعترافاً بالعبودية له وحده، وقياماً بواجب الشكر على ما أنعم عليها من نعم، فتارك الصلاة يُعزل عن جماعة المؤمنين ويصير في صف المجرمين لأنه جاحد لخالقه لا يؤدي له واجب الشكر.

٢) ﴿ولم نكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ﴾ فإطعام المسكين ينجي من عذاب الله، وإطعامه يشمل أيضاً ما يحتاج إليه من ملبس ومسكن. فإهمال المسكين يؤدي به تحت دافع الحاجة إلى الإرتماء في أوحال الرذيلة والإجرام، كما يجعل المساكين يتكتلون ويؤلفون العصابات للنهب والقتل، وهكذا فإن الذي يحرم المساكين حقهم من العيش الكريم هو في نظر الإسلام مجرم.

٣) ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ﴾ والخوض في الكلام إذا تكلم فيه على غير هدى، فقد قالوا في القرآن: إنه سحر، واتهموا محمداً بالجنون وغير ذلك، وهذا ينطبق اليوم على المستهترين بأمر العقيدة الإسلامية وشعائرها وأخذها مأخذ الهزل واللعب.

٤) ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدِّينِ﴾ يوم الدين: هو يوم الجزاء والحساب في الأخرة، فالإيمان بيوم الجزاء يجعل الإنسان يقظ الضمير يحاسب نفسه على كل هفوة تصدر منه خوفاً من العقاب في الآخرة، بينما التكذيب به ونكرانه يجعل الإنسان لا يبالي بأي عمل يصدر منه، فيقترف الشر إذا كان في ذلك إرضاءً لشهواته، وينغمس في الآثام إذا كان فيها نفع له.

هؤلاء هم المجرمون في نظر القرآن لقد عاشوا عمرهم على ذلك:

﴿حتَّى أَتَانَا اليقين﴾ أي الموت، فالموت ينهي كل شيء ولا يترك مجالاً لندم أو توبة.

وبعد أن يأتي الموت وترجع الأرواح إلى بارئها يوضح القرآن ما أعلنه من قبل بأن كل نفس مأخوذة بعملها، وهو قوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافعينَ﴾ فما يتكل عليه المذنبون من شفاعة الأصنام أو الصالحين، أو ما سُمي بالقديسين ـ كما يعتقد أهل الكتاب ـ هو وهم باطل لأنه لا شفاعة لهم.

ثم يصف الله فئة نفرت ممن دعاها إلى الهدى بصورة تثير السخرية:

﴿فَمَالَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَة. فَرَّتْ مِن قَسْوَرَة﴾.

فالقرآن يتساءل: فما بال المشركين ﴿عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي عن تذكرة الله إياهم بهذا القرآن معرضين لا يستمعون لها فيتعظوا ويعتبروا ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ جمع حمار والمراد بها حمر الوحش ﴿مُسْتَنْفِرَة﴾ أي نافرة مذعورة، فرت من ﴿قَسْوَرَة﴾ أي الأسد، وقيل: الرماة والصيادون الذين يتبعونها.

ثم يصف القرآن نفسية هؤلاء وما تتصف به من الحسد للنبي ﷺ:

﴿بل يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً. كَلَّا بل لا يَخَافُونَ الآخرة﴾ فالقرآن يبين حسدهم للنبي ﷺ الذي اختاره الله وأوحى إليه من دونهم، كما يبيّن رغبتهم الملحة بأن ينال كل منهم هذه المنزلة، وأن يؤتى كل واحد منهم صحيفة مفتوحة خاصة به تنشر ما بين يديه ﴿كَلَّا﴾ أي ليرتدعوا عن هذه الأمنية التي لا فائدة منها. ﴿بَل لا يَخَافُونَ الآخِرَة﴾ فعدم

خوفهم من الآخرة وإنكارهم البعث والحساب هو الذي أفسدهم وجعلهم يُعرضون عن الاتعاظ بالقرآن، لأنهم لو خافوا الآخرة لتبدلت نفوسهم وصلحت.

ويختم اللَّه هذه السورة بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. وَمَا يذكرون إِلَّا أن يَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المغْفِرَةِ﴾.

كَلَّا: أي ليرتدعوا عمّا هم عليه من الاستخفاف بأمور الآخرة ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَة﴾ أي إن القرآن يذكّرهم بما يجب عليهم أن يعتقدوا ويعملوا به ﴿فمن شاء ذَكَرَهُ﴾ أي اتعظ به وعمل بما فيه من أمر اللَّه ونهيه ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ وما يتعظون وينتفعون بهذا القرآن ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّه﴾ فكل ما يقع في الوجود يرجع إلى مشيئة اللَّه التي تسيطر على أقدار الوجود كله، ونحن البشر لا نعرف شيئاً من ذلك، ولكننا نعرف ماذا يريد اللَّه منا من الأوامر والنواهي. فهو سبحانه ﴿أهل التقوى﴾ أي حقيق وجدير لأن يُتقى ويحذر عقابه، فلماذا لا تتقونه يا قوم، وهو أيضاً ﴿أهل المغفرة﴾ أي حقيق لأنه يغفر لمن اتقاه واتبع هداه، فلماذا لا تتوبون إلى ربكم وتستغفرونه لما بدر من ذنوبكم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ
الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ
﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾
فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾
يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ

شرح المفردات

لا أُقسم بيوم القيامة : لا ، تفيد التأكيد ، أي أقسم بهذا اليوم العظيم .

النفس اللوّامة : النفس التي تلوم صاحبها على الشر الذي فعله ، وعلى الخير الذي لم تستكثر منه .

نجمع عظامه : نعيد خلقها .

نُسوّي بنانه : نخلق أصابعه ، ونجعلها متناسبة .

ليفجُر أمامه : يظل على فجوره فيما يستقبله من الزمان .

أيّان : متى .

برِق البصر : فزع وتحير من عجائب ما يرى .

خسَفَ القمرُ : ذهب ضوؤه .

لاوَزَر : لا ملجأ .

يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ
ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ
لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ
قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾
وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾
وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا
بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ

شـرح المفـردات

المستقر : المصير والمنتهى .

يُنَبَّأ : يُخَبَّر .

بما قدَّم وأخَّر : بما قدم من المعصية وأخَّر من الطاعة .

بصيرة : حُجة وبيِّنَة .

ولو ألقى معاذيره : ولو أدلى بحجج يعتذر بها عن نفسه .

فاتَّبع قرآنه : فاستمع واتبع بذهنك قراءته ، فالقرآن هنا مصدر بمعنى القراءة .

ثم إن علينا بيانه : بيان ما أشكل من معانيه .

العاجلة : الدنيا .

تذرون : تتركون .

ناضرة : حسنة ومُتنعِّمة .

باسِرَة : كالحة شديدة العبوس .

فاقرة : داهية عظيمة تكسر فقار الظهر .

بلغت التراقي : بلغت الروح أعلى الصدر .

مَنْ راق : من يداويه وينجيه من الموت .

ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

شرح المفردات

التفّت الساق بالساق : التفاف الساقين عند خروج الروح من الإنسان .

المساق : مرجع العباد .

فلا صدّق : لم يُصدّق بالقرآن ونبوة محمد ﷺ .

تولّى : أعرض عن طاعة الله .

يتمطّى : يتبختر ، ويختال في مِشيته .

أوْلى لك فأوْلى : ويل لك مرة بعد مرة .

أن يُترك سدى : أي يهمل فلا يكلّف ولا يُجزى .

يُمنى : يُراق في الرحم .

علقة : الفترة الثانية من بدء حياة الجنين حيث تكثر الخلايا وتلتصق بجدار الرحم .

فسوّى : فكمّل اعضاءه .

سُورَةُ القِيَامَة

ايضـــاح و دروس

من أركان الإيمان في الإسلام: الإيمان باليوم الآخر، والذي يُسمى أيضاً يوم القيامة.

وقد سُئل رسول الله عن حقيقة الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه من الله».

والقرآن خصَّ سورة بهذا الموضوع سماها: (سورة القيامة) التي هي موضوعنا الآن.

افتتحت هذه السورة بالتأكيد على أن يوم القيامة حق وهو آتٍ لا ريب فيه فقال سبحانه:

﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ. وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾.

والمعنى: أقسم بيوم القيامة، فإدخال (لا) النافية قبل القسم مستعمل بكثرة في كلام العرب وأشعارهم، وفائدته توكيد القسم، كأن سبحانه يقول: إن الأمر بَيِّن لا يحتاج أن أُقسم به. والله سبحانه يقسم بيوم القيامة لتقرير وجوده في عقل من ينكره، وتعظيم شأنه في نفس من يحقره.

كذلك أقسم سبحانه بالنفس ﴿اللوَّامَة﴾ وهي نفس المؤمن التي تلوم صاحبها سواء في فعل الطاعة، أو في اقتراف المعصية، تلوم نفسها على فعل الطاعة لأنها لم تعمل زيادة على القدر الذي قامت به، كما تلوم نفسها على الذنب الذي فعلته، فترجع إلى الله تائبة، عاقدة العزم على أن لا تعود لِمِثله في المستقبل، يقول الحسن البصري: إن البارّ لا تراهُ إلاّ لائماً

نفسهُ، وإن الفاجر يمضي قُدُماً لا يعاتب نفسه.

والله إذ يقسم بالنفس اللوَّامة فهو بذلك يُثني عليها، وينوه بشأنها، ويرغِّب في طريقتها.

ثم ينتقل القرآن إلى محاجة الكفار الذين ينكرون القيامة:

﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾.

ولقد كان نكران الآخرة عند البعض هو صُعوبة تصورهم إعادة الإنسان حيًّا، وجمع عظامه البالية الذاهبة في التراب وإعادتها إلى طبيعتها، وقد ورد أن أحد الكفار العرب واسمه (عَدي) جلس يوماً إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يحدثه عن يوم القيامة، فذكر له شيئاً من أمرها، فقال له عدي: أما والله لو رأيت ذلك اليوم بعيني لم أصدقك يا محمد ولم أؤمن بك ولا به، أيمكن أن يجمع الله العظام؟! فنزل الوحي في الردّ عليه. فالله سبحانه يقول مؤكداً: بلى نقدر على جمع عظامه مع قدرتنا فوق ذلك على تسوية بنانه. و (البنان) الأصابع، وقيل: أطراف الأصابع.

ثم يبيِّن القرآن الكريم السبب الجوهري، والدافع النفسي الخفي في نكران يوم القيامة، ذلك السبب هو أن الإنسان يريد أن ينجرف في الشهوات ويقبل على المحرمات، ولكن فكرة البعث والجزاء تَحُول بينه وبينها لذلك يستبعد يوم القيامة من ذهنه، وينسخه من فكره. يقول تعالى:

﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ. يَسْأَلُ: أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ؟﴾.

إن (بل) في صدر الآية توحي بهذا التعليل وتمهد لهذا السبب الذي وصفه الله بقوله: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ أي يظل على فجوره فيما يستقبله من

الزمان، ويمضي قدماً في المعاصي، فأمامه: تعني في مستقبله، فهو يسأل عن يوم القيامة سؤالَ إنكار واستبعاد ليظل مُتمادياً في فجوره.

فالإنسان إذا آمن بالقيامة، والجزاء على الأعمال، جعل نفسه في يقظة وترقب لكل ما يصدر منه، فيمنع نفسه من الشر، ويقبل بكليته على الخير لأنه سيقف بين يدي الله للحساب في ذلك اليوم. فالاعتقاد بالقيامة إذن يجعل نفس الإنسان لوَّامة، تلوم نفسها على كل ما يصدر منها، وهذا هو السرُّ في اقتران القسم بالقيامة في مطلع السورة بالقسم بالنفس اللوَّامة.

وأمام إنكار الكافرين ليوم القيامة يأتي الجواب القرآني عاصفاً عنيفاً. مورداً بعض الحقائق عن ذلك اليوم:

﴿فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ. وَخَسَفَ القَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ. يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ. كَلاَّ لاَ وَزَرَ. إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ. يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

فإذا اضطرب البصر ودهش خوفاً وهلعاً من رؤية المتغيرات الهائلة في الدنيا، كنسف الجبال وشقّ الأرض، وإذا ما خسف القمر فذهب ضوؤه، وإذا ما الشمس اقترنت بالقمر بعد افتراق، وجمع بينهما في ذهاب النور، في وسط هذا الذعر والهول المسيطر على الكون، يتساءل الإنسان: أين المفر؟ فَيُجاب حينئذٍ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أي ليس هناك فرار ينفع صاحبه لأنه لا ينجيه فراره ولا شيء يلجأ إليه من حصن أو ملجأ بل ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ﴾ فالمستقر عنده، والمصير يوم وقوع هذه الأحداث إلى الله وحده، فله يومئذٍ الأمر وإليه الحكم، حيثُ يُكشف الغطاء عن أعمال الإنسان ﴿يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ينبأ بما قدّم من عمل صالح أو شر قبل مماته، وبما أخّر بعد موته من آثار منسوبة إليه سواء أكان عملاً صالحاً كصدقة جارية أو علم

ينتفع به، أو كان بدعة سيئة فسار الناس على منوالها فاكتسب وزرها.

وقد يكون المراد: أول عمله وآخره، فيكون المعنى: أن الإنسان ينبأ عن كل ما عمله في حياته منذ البداية حتى النهاية، والمقصود بـ ﴿يُنَبَّأُ﴾ أي يُخبر عن عمله ليجري الحساب عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

والإنسان شاهد على نفسه بما عمل من أعمال:

﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾.

فالإنسان لو اعتذر بكل عُذْر لم ينفعه ذلك، فأعضاء جسمه تقوم عليه مقام الشاهد كما جاء في القرآن: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِم أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِم وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾ النور: ٢٤.

ثم تأتي هذه الآيات بتوجيه النبي ﷺ إلى كيفية تلقيه للقرآن:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

ولقد كان النبي ﷺ حين ينزل عليه القرآن في أول عهده بالوحي يتلقاه من جبريل متعجلاً فيحرك به لسانه وشفتيه طلباً لحفظه، وخشية ضياعه من صدره، فلو كان القرآن صادراً من نفسه، أي من تأليفه كما يدعي أعداء الإسلام، لا من عند اللّه، لكان له من الروية والأناة ما يكفل له حاجته من إنضاج الرأي وتمحيص الفكرة، ولما تعجَّلَ فحرّك به لسانه طلباً لحفظه. ولكن النبي ﷺ كان يرى نفسه أمام تعليم مفاجىء عليه أن يُعيد كل ما يُلقى إليه حرفياً، فكان لا بدّ له في أول عهده بتلك الحالة التي لم يألفها أن يكون شديد الحرص على حفظه.

فاللّه سبحانه يقول للنبي ﷺ: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي

لا تحرك لسانك بالقرآن عند إلقاء الوحي لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلّت منك ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي علينا أن نجمعه في صدرك حتى تحفظه وتقرأه على الناس ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي إذا قرأناه عليك بواسطة جبريل فاستمع له واتَّبِعْ ما فيه واعْمل به ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي بيان حلاله وحرامه وما أشكل من معانيه وأحكامه.

ثم تعود الأيات لتنذر المنكرين للقيامة الذين يؤثرون شهوات الدنيا على الآخرة:

﴿كَلَّا، بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾.

والمعنى: ارتدعوا يا معشر قريش فليس الأمر كما زعمتم من أنكم لا تبعثون بعد مماتكم ولا تجازون بأعمالكم، بل أنتم قوم تحبون الدنيا الفانية وتتركون الآخرة الباقية. وفي تسمية الدنيا بالعاجلة إيحاء بقصر هذه الحياة وسرعة انقضائها في عمر الإنسان.

وفي الآخرة يبيّن الله مصير المؤمنين ومصير الكافرين:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. وَوجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

فوجوه ناضرة وهي وجوه المؤمنين، والناضرة بمعنى الحسنة المسرورة من أثر النعيم تنظر إلى ربها عَياناً بلا حجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم كالنظر إلى ربهم تبارك وتعالى، أما الكيفية فمجهولة لدينا لا ندري كنهها. فكل ما في الكون من جمال من صنيع رب العالمين، فتجليه سبحانه على خلقه المؤمنين فيه سعادة لهم ليس بعدها سعادة يتضاءل أمامها كل ما في الجنة من ألوان النعيم.

أما وجوه الكافرين فهي ﴿باسَرَةٌ﴾، أي عابسة كالحة لما تعلم من سوء أعمالها، فهي ﴿تَظُنُّ﴾ أي تستيقن ﴿أن يُفْعَل بِها فَاقِرَةٌ﴾ أي ينزل بها داهية عظيمة تقصم فقار ظهرها.

وبعد أن يهزّ الله الكافرين بين الحين والحين بمشهد من مشاهد يوم القيامة يقترب منهم هنا أكثر ليزلزلهم بمشهد يرونه كل يوم: انه مشهد الموت الذي يفصل الإنسان عن دنياه، إنه الموت الذي يُفَرِّقُ بين الأحبة والذي يواجه كل حي على وجه الأرض، فلا يملك له رداً، وهو يتكرر في كل لحظة في بقاع العالم، ويقف الجميع منه موقفاً واحداً لا وسيلة إلى دفعه مما يوحي بأنه قادم من جهة القدرة الإلَهية التي لا يملك البشر معها شيئاً، وهم مع هذا لا يعتبرون بزوال هذه الدنيا الفانية. يقول تعالى:

﴿كَلَّا، إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ. وَقِيلَ: مَنْ رَاقٍ. وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ. والْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ﴾.

كلَّا، أيْ ردع لهم عن إيثار الدنيا على الآخرة، وتذكير لهم بما سيؤولون إليه من الموت وفراق الدنيا. والضمير في ﴿بَلَغَتِ﴾ يرجع إلى روح الإنسان و ﴿التَّرَاقِيَ﴾ جمع تَرْقُوَة وهي عظمة بين ثُغْرة أسفل الرقبة والكتف. أي بلغت الروح أعالي الصدر، وهي كناية عن الإشراف على الموت وظهور أماراته ﴿وقيل مَنْ رَاقٍ﴾ أي يقول أهل المحتضر لبعضهم البعض: هل من طبيب يشفيه ويرقيه ويداويه مما نزل به؟ و ﴿رَاق﴾ اسم فاعل من رقي، إذا قرأ شخص ليداوي المريض. ومعنى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الفِراقُ﴾ أي أيقن المحتضر حلول الموت الذي سيفارق به الدنيا والأهل و المال والولد. وقوله تعالى: ﴿والْتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ﴾ قيل المراد بذلك: إلتفاف الساقين عند خروج الروح. أو عندما يُلفَّان في الكفن.

وقيل: التفَّت شدة كرب الموت بشدة أمر الآخــرة المقبل عليها وما فيها من أهوال وحساب وثواب وعقاب ﴿إلى ربِّك يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ﴾ أي إلى اللَّه مرجع العباد حيث يساقون إليه يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم.

وأمام مشهد الموت الفاصل بين حياة وحياة، والباعث على العمل لما بعد الموت، تستنكر الآيات التالية من أعرض عن هدى اللَّه:

﴿فَـلاَ صَـدَّقَ وَلاَ صَلَّى. وَلَكِنْ كَـذَّبَ وَتَـوَلَّى. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾.

هذا المنكِر للقيامة لم يُصـدِّق باللَّه وبـوحيه، ولم يصـلِّ له، وكـذَّب بالقرآن وأعـرض عن الإيمان، ثم بعـد هذا ذهب إلى أهله ﴿يتمـطَّى﴾ أي يتبختر ويختال في مشيته فخوراً بما فعل.

المتصف بهذه الصفات يواجهه القرآن بالتهديد والوعيد:

﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى. ثم أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾.

هذه العبارة في لغة العرب مراد بها التخويف والوعيد والتهديد أي ويل لك أيها الشقي ثم ويل لك وقد كرر القرآن ذلك زيادة في الوعيد.

هذا الإنسـان المنكر للقيامة، المتهالك على هذه الحياة، المنكبّ على فجوره طيلة عمره، هذا الإنسـان أيحسب أن اللَّه خلقه سُدى دون غاية، شأنه كشأن الحيوان، لا يُؤمر ولا يُنهى، ولا يُكلف، ولا يُخاطب بشـرائع تُصلح أمره، ولا يُحاسب في الآخرة على ما اقترفت يداه؟!

﴿أَيَحْسَـبُ الإِنْسَـانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾.

ثم يأتي الرد الإلّهي على الـذين ينكرون القيـامة مبينـاً نشأة الإنســان

الأولى ومراحل تطوره في الرحم، فالقدرة الإلهية التي خلقت الإنسان بدءاً على الأرض قادرة على إعادته حيّاً بعد الممات:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحيِيَ المَوْتَى﴾.

فالإنسان لم يكن وليد الصدفة، فقد خلقه الله من ماء الرجل الذي يحتوي على الملايين من الحيَّات المنوية التي تستقر في رحم المرأة وأحد هذه الحييات المنوية يلقح بويضة الأنثى، ثم تصير علقة وهي مجموعة الخلايا التي تنقسم إليها بويضة الأنثى بعد تلقيحها من إحدى الحُيَّات وتعلق بجدار الرحم، ثم تتطور الخلايا إلى إنسان تام الخلقة: ذكر أو أنثى.

فالقادر على خلق الإنسان على هذا الشكل قادر على إعادته حياً يوم القيامة للحساب: ﴿أَلَيْسَ ذَلِك بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحيي الموتَى﴾، وبهذه الآية تنتهي هذه السورة متعاطفة مع الفكرة التي بدأت بها من الرد على الإنسان المنكر للبعث الذي يعتقد أن الله لن يعيده حيّاً ولن يجمع عظامه والجواب كان في مطلع السورة: ﴿بَلَى قَادِرِينَ﴾ وكان ختام السورة متناغماً معها بقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ﴾.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه إذا قرأ آية: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أن يُحيي الموتَى﴾. قال: سبحانك اللهم بلى.

التفسيرُ العِلمي

بصمات الأصابع :

يقول اللّٰه تعالى :

﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أن لَنْ نَجْمَعَ عظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾.

فاللّٰه يقول بأنه قادر على إعادة خلق أصابع الإنسان وإرجاعِهَا إلى ما كانت عليه في الدنيا بعد أن تبلى .

والسؤال هنا: لماذا اختار اللّٰه سبحانه بنان الإنسان ولم يختر عضواً آخر من أعضاء الجسم الكثيرة والمهمة؟

الجواب على ذلك: أن أعضاء الجسم كالعين والأنف والأذن وغيرها تتشابه بين إنسان وآخر، ولكن الأصابع لها ميزات خاصة فهي لا تتشابه ولا تتقارب، وهذه الميزات لم تُعرف لأول مرة، إلاّ في القرن الماضي أي بعد نزول القرآن بثلاثة عشر قرناً، ففي سنة ١٨٨٤م استعملت رسمياً في إنكلترا طريقة التعرف على الإنسان بواسطة بصمات الأصابع، إذ أن بشرة الأصابع لدى الناس جميعاً مغطاة بخطوط على ثلاثة أنواع: أقواس، أو عراو، أو دوّامات بمعنى دوائر متحدة المركز، وكذلك يوجد نوع رابع يشمل جميع الأشكال التي لم توصف في الثلاثة السالفة الذكر وتسمى المركبات، وهذه الخطوط لا تتغير مدى الحياة، وتتميز بين شخص وآخر، ولا تتشابه بصمة إنسان مع إنسان آخر في أقطار الدنيا قاطبة.

فكل لفظ من ألفاظ القرآن مقصود لمعنى مُراد يكشف عن سر من الأسرار الغامضة الخفية في الكون وفي خلق الإنسان، وفي هذا ما يشهد ويدل على إعجاز القرآن وأنه ليس من صنع البشر بل من خالق البشر.

مصدر جنس الجنين:

من الحقائق التي توصل إليها العلم حديثاً أن جنس الجنين الذي سيولد ذكراً كان أم أنثى مصدره من ماء الرجل وإليك البيان:

إن من المعتاد أن يفرز مبيضاً الأنثى بويضة واحدة كل شهر، ويفرز السائل المنوي عند معظم الرجال كميات هائلة تبلغ ملايين الحُيَّات المنوية كل مرة، وإحدى هذه الحُييّات المنوية إذا استطاعت الوصول إلى بويضة الأنثى فإنها تندمج فيها وتكوّنان معاً خلية كاملة تنقسم تباعاً حتى تصبح ملايين الملايين الخلايا وهذه هي الخطوات الأولى لتكوين الطفل.

والسائل المنوي الذي يصدر من الرجل يحمل صبغيات أنثوية وذكرية معاً، فإذا كان الحيوان المنوي الواحد الذي يخصب البويضة يحوي صبغيات أنثوية كان الجنين أنثى وإذا كان يحوي صبغيات ذكرية كان الجنين ذكراً.

والقرآن الكريم أقر بهذه الحقيقة حين قال عن مصدر خلق الإنسان:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً[1] فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ: الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾. فالنطفة من مني يُمْنى هي ماء الرجل التي تحتوي على الحييّات الذكرية والأنثوية والضمير في لفظ (منه) راجع إلى ماء الرجل. الذي جعل الله من هذا الماء (الذكر والأنثى).

---

(١) علقة: هي تكاثر الخلايا وتعلقها بجدار الرحم، والمفسرون القدامى فسروها بالدم الجامد.



بسم الله الرحمن الرحيم

هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴿١﴾ إنا
خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴿٢﴾
إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴿٣﴾ إنا أعتدنا للكافرين
سلاسلا وأغلالا وسعيرا ﴿٤﴾ إن الأبرار يشربون من كأس كان

شرح المفردات

هل أتى : قد أتى ، والاستفهام للتقرير .

حِينٌ من الدهر : مدة من الزمن .

لم يكن شيئاً مذكوراً : معدوماً لا يُذكر ، وذلك قبل خلقه .

من نُطفة : ماء الرجل أي منّيه .

أمشاج : أخلاط .

نبتليه : نختبره .

هديناه السبيل : بيّنا له طريق الخير والشر ، والهدى والضلال .

شاكراً : مؤمناً بالله طائعاً له ، مقدراً نعمته عليه .

كفوراً : جاحداً الله حائداً عن طريق الهداية .

أعتدنا : أعددنا وهيأنا .

سلاسل : جمع سلسلة ، وهي حلقات من حديد يتصل بعضها ببعض .

أغلالاً : جمع غُل ، وهو طوق من حديد يجعل في العنق أو اليد .

سعيراً : ناراً ملتهبة .

الأبرار : جمع بَرّ أو بارّ وهو الصادق في الإيمان ، المطيع لربه ، القائم بأعمال الخير .

مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ
بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ
عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ
مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾
فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم
بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

شرح المفردات

مِزَاجُها : المادة التي يُمزج بها الشراب .

كافوراً : اسم عين في الجنة ، شبهت بالكافور ، وهو معروف برائحته الطيبة .

عباد الله : أهل الإيمان .

يفجّرونها تفجيراً : يجرونها حيث شاءوا من منازلهم .

النَّذْرِ : كل فِعل خير وطاعة يوجبه الإنسان على نفسه .

كان شرّه مُستطيراً : كان عذابه فاشياً منتشراً .

على حُبّه : مع حبهم له وحاجتهم إليه .

مسكيناً : من ليس لديه من المال ما يكفيه .

وأسيراً : الذي يؤسر في الحرب فيحبس ، وكذا كل سجين .

جزاء : مكافأة .

شكوراً : ثناءً وشكراً .

قمطريراً : شديداً طويلاً .

لقّاهم : أعطاهم .

نضرة : حُسناً وبهجة .

سُورة الدَّهر

ايضـــاح و دروس

هذه السورة في مجملها تتحدث عن نعيم الأبرار في الآخرة.

تبدأ هذه السورة بِذِكْرِ فَضْلِ الله على الإنسان الذي أوجده من العدم:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾.

هذا الاستفهام في مطلع السورة إنما هو للتقرير، و (هل) بمعنى: قد، كما تقول: هل رأيت صنيع فلان، وقد علمت أنه قد رآه، تقول ذلك لا لتستفهم ولكن لتقرّر. والمراد بالإنسان جنس بني آدم، فإنه مرّ عليه مدة من الزمن قبل أن يُنفخ فيه الروح كان فيها معدوماً لا يذكر.

إن مطلع هذه السورة يدعو الإنسان لأن يفكر ويتدبّر كيف أنه لم يكن له وجود على وجه الأرض ثم وُجِدَ! أفلا يثير هذا الإيجاد في نفسه شعوراً بالامتنان لتلك القدرة الإلّهية، التي أوجدته من العدم وجعلته شيئاً مذكوراً؟

هذا المطلع إيحاء قوي، ودعوة صارخة للإنسان ليرجع إلى نفسه، ويكتشف ذاته وحقيقته، ويعلم عندها: أن من أنعم عليه بالخلق، وتفضّل عليه بالوجود جدير بالعبادة والشكر.

ثم تأتي الآية التالية تُذكِّر الإنسان بكيفية خلقه وإيجاده:

﴿إنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾.

ومعنى أمشاج: أخلاط، جمع مشج، من مشَجَ الشيء إذا خلطه. فوصف الله النطفة وهي ماء الرجل بالأمشاج، إشارةً إلى ما تحتويه هذه النطفة من عناصر مختلفة، والتي سنوضحها في التفسير العلمي.

والله سبحانه لم يخلق الإنسان على هذا النحو للعبث أو اللهو، بل هناك حكمة وغاية يبينها بقوله: ﴿لنبتليه﴾ أي لامتحانه واختباره بموجب الشرائع التي أوحاها الله إلى أنبيائه، أو امتحان الإنسان بأنواع النِعَم، أو بالحرمان والمصائب، ليظهر جوهره، ويتبيّن صدقه من كذبه.

وامتحان الله للإنسان يعتمد على العقل والإدراك، لذلك فقد زوّد الله الإنسان بالسمع والبصر ليدرك الأشياء ويعقلها، ثم يختار المناسب ليُجْزَى وفق هذا الاختيار، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾، فالسمع والبصر هما قوام معيشة الإنسان وتفكيره والنعمة العظمى عليه، ولو وُلِدَ الناس جميعاً صُمًّا عُمياً لما كان لهم من العقل والإدراك مثل ما لهم اليوم، ولما استطاعوا العيش بدونهما.

وبجانب نعمة السمع والبصر فقد بيّن الله للإنسان سبيل الهدى والضلال:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وإِمَّا كَفُوراً﴾.

وهديناه السبيل: أي عرفناه إلى طريقي الخير والشر، وبيّنا له الهدى من الضلال، والخطأ من الصواب بواسطة الرسل والشرائع التي أوحينا لهم. وبعد أن عَرّفه الله على الطريقين أوكل إليه أمر الاختيار بينهما، فإما أن يختار الهداية فيكون شاكراً لنعمة الله عليه، فيعبده ويسلك طريق الخير فيحصل على رضاء ربه، وإما أن يختار الضلالة فيكون كافراً لنعمة ربه عليه، فيسلك طريق الإثم والفجور فيستحق غضبه وعقابه.

ثم يبيّن الله ما أعد في الآخرة، للذين يسلكون سبيل الإثم والفجور:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً﴾.

فالله أعدّ وهيأ للكافرين ثلاثة أشياء: هيّأ لهم سلاسل، وهي القيود التي تكون في الأرجل، كما هيأ لهم الأغلال، وهي القيود الخاصة بالمجرمين، وتكون الأغلال أكثر ما تكون في الأيدي، وهيأ لهم مع ذلك ﴿سَعيراً﴾، وهي النار التي تتوقد ويُعذَّبون بها.

وبعد ذلك يبيّن الله ما أعد للذين يسلكون سبيل الهدى من نعيم، مطلقاً عليهم اسم الأبرار:

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً. عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً﴾.

والأبرار جمع بَرٌّ فهو بارّ، وهو من جمع في نفسه: الصدق والتقوى والإخلاص إلى الله والإحسان إلى خلقه، فهؤلاء الأبرار يشربون من كأس ممزوج شرابها بالكافور، وهو طيب معروف جنسه يُستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين، وهو من أنفس أنواع الطيب عند العرب التي يمزجونها بشرابهم ويتلذذون بها، وقد يراد أن من شرب هذه الكأس وجدها في طيب رائحتها وفوحان شذاها كالكافور. وهم يشربون تلك الكأس التي تُغترف من عين فوارة لا يخشون نضوبها لأنها وافرة بغزارة، يفجرونها حيث شاءوا. وقيل: يجرون ماءها إلى حيث شاءوا مما يشبه أنابيب المياه المستعملة اليوم، والله أعلم.

وتجدر الإشارة إلى أن الآية أطلقت على المؤمنين وصفين: الأبرار، وعباد الله. والأبرار وصف لعملهم، وعباد الله وصف لقربهم من الله.

وهؤلاء الأبرار كانوا يتصفون بهاتين الصفتين:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾.

والنـذر: هو أن يـوجب الإنسان على نفسـه شيئاً من الطاعـات ليس بواجب عليه أصلاً، وذلك بـأن يقول مثـلاً: للّه عليّ كذا وكـذا من صدقـة أو صلاة أو صوم أو حج، يعلق نذره بأمر يلتمسه من اللّه، وذلك بأن يقول: إن شفى اللّه مريضي كان للّه عليٌّ كذا. ويشمل الوفاء بالنذر: الوفاء بما فرض اللّه على الإنسان، فيدخل في ذلك جميع الطاعات. ولا بد من التنبيه إلى أن نذر المعصية لا يجب الوفاء به.

والمراد بقوله سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْماً﴾ أي يوم القيامة، والخوف من ذلك اليوم يجعل المرء ينشط لطاعة اللّه والعمل الصالح واجتناب المعاصي. ومعنى ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾[1] أي كان شره وخطره منتشراً فاشياً في كل جهة.

ومن صفات الأبرار التي ذكرها سبحانه:

﴿ويُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾.

أي يطعمون الطعام وهم يحبون ذلك الطعام ويشتهونه، وهم بحاجة ماسة إليه، فهم مع حاجتهم إليه وحبهم له يؤثرون به المحتاجين، وهم لا يحبونه عادة إلاّ إذا كان من أجود طعامهم. وفي هذا المعنى جاء في القرآن الكريم: ﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون﴾ آل عمران: ٩٢. وهذا الإحسان القائم على هذا الشعور يفرض على الغني احترام الفقير، وغرس شعور المساواة بينهما، فلا يخص الغني نفسه بجيد الطعام ويعطي الفقير رديئه..

وأول من خصه اللّه بالإحسان هو (المسكين): وهو الذي لا شيء له

---

(١) مأخوذ من استطار الحريق إذا امتد وانتشر.

من المال يكفيه أو يكفي عياله وقد أذلته الحاجة.

و (اليتيم): هو الصغير الفقير الذي فقد والده ولم يبلغ مبلغ الرجال. وإطعامه يشمل: إنشاء مؤسسة تطعمه وتعلّمه وتهذبه وتشرف عليه، فبذلك يصبح فرداً صالحاً في المجتمع عندما يبلغ مبلغ الرجال، أما إهماله فيؤدي به إلى الإرتماء في أوحال الرذيلة والجريمة.

و (الأسير): هو من أمسكه الجيش الإسلامي من جنود الأعداء، أو من استسلم له، فالإسلام يأمر بإطعام الأسير حفاظاً على حياته، وإكراماً لإنسانيته، ويشمل ذلك توفير أسباب الراحة له. هذا المفهوم الإنساني يظهر رحمة الإسلام بالأسرى في زمن كانت الشعوب تفتك بالأسير وتسومه أشد أنواع العذاب. والإسلام له السبق على شرعة حقوق الإنسان التي وضعتها الأمم المتحدة ومن ضمن بنودها معاملة الأسير بالحسنى وتوفير الطعام له.

ويصف اللّه نفسية الأبرار والوازع الذي يحدوهم إلى الإحسان:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكوراً. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾.

فهم يحسنون ويطعمون لأمرين، أولاً: طلب رضا اللّه والقربى منه. ثانياً: إتقاء ذلك اليوم الرهيب، وهو يوم القيامة، وقد وصفه اللّه (بالعبوس) بياناً لشدته، وعظيم أهواله على الخلائق، أو أن الخلائق في هذا اليوم وجوههم عابسة من شدة الغم والقلق. ومعنى (قمطريراً) أي طويلاً شديداً.

ثم يطمئن اللّه هؤلاء الأبرار بأنه سيعطيهم الأمن يوم القيامة بدل الخوف، والسرور بدل العبوس:

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾.

فاللّه وقاهم عذاب يوم القيامة، ﴿ولقّاهم﴾ أي أعطاهم ﴿نَضْرَةً﴾ أي حسناً وبهجة في الوجوه، وسروراً في قلوبهم بسبب الثواب العظيم الذي نالوه من اللّه.

وتتابع الآيات وصف الأبرار ووصف النعيم الذي يلقونه:

﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾.

ففي وصف اللّه الأبرار بصفة الصبر، وبيان ما أعدّ اللّه للصابرين من الأجر هو إشادة بالصبر، وبيان منزلته عند اللّه، وفي ذلك بشرى للصابرين الذين يكابدون مشاق الحياة وهمومها وأحزانها.

فالصبر أم الفضائل، ومنبع الخير على الأرض، وإن التغلب على أهواء النفس، وكبحها عن مشتهياتها الضارة، والسير بمقتضى الهداية الإلّهية يحتاج إلى صبر، وهذا الصبر بيّن القرآن ثوابه: ﴿جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ فهذا إيجاز بليغ يصف اللّه فيه نعيم الأبرار بكلمتين هما: الشعور بلذة الطعام والشعور بلذة اللباس. فاللّه أشار بقوله: ﴿جَنَّةً﴾ إلى ما يتمتع به أولئك الأبرار من صنوف الثمار الشهية، بالإضافة إلى المناظر الساحرة، والخمائل الفاتنة، والجداول الرقراقة. وفي قوله: ﴿حريراً﴾ إشارة إلى ما يتمتعون به من أنواع اللباس التي من أنفسها الحرير.

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ

شرح المفردات

متكئين : إتكأ ، جلس متمكناً مسنداً ظهره أو جنبه إلى شيء .

الأرائك : جمع أريكة ، وهي كل ما اتُّكيء عليه من سرير أو فراش .

لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً : لا يرون في الجنة حراً ولا برداً شديداً .

دانية عليهم ظلالها : أي مرخاة مسدولة عليهم ظلالُ أشجارها .

ذُلِّلَت قطوفها : سُهِّلت ثمارها لقاطفها .

كانت قواريرا : كانت من زجاج شفاف .

قدَّروها تقديراً : أي يقدم السقاة الشراب ويقدرونه حسب حاجة الشاربين قلة وكثرة .

زنجبيلاً : الزنجبيل نبات له عروق في الأرض يستطيبه العرب في شرابهم .

سلسبيلاً : ما كان من الشراب في غاية السلاسة وسهولة الاستساغة .

ولْدَانٌ : وُصَفاء للخدمة في مقتبل العمر .

مُخَلَّدُونَ : شبابهم دائم ، لا يهرمون ولا يتغيَّرون .

حسبتهم لؤلؤاً : في بياضهم وحسنهم كاللؤلؤ .

منثوراً : متفرقين للخدمة .

عَالِيَهُم : يعلو أجسامهم ويغطيها .

ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ

شرح المفردات

سُنْدُس : نسيج من حرير رقيق .

إِسْتَبْرق : نسيج من حرير سميك .

وحُلُّوا : أُلبسوا الحُلي .

شراباً طهوراً : شراباً نقياً خالياً من الأضرار .

سعيكم : عملكم .

لِحُكْم ربك : قضاء ربك .

آثماً : مذنباً منغمساً في المعاصي .

كفوراً : منكراً لله ، جاحداً لنعمه .

واذْكُرِ اسم ربك : صلِّ لربك .

بُكْرةً : أول النهار ، والمراد بذلك : صلاة الصبح .

أصيلاً : بعد منتصف النهار ، والمراد : صلاة الظهر والعصر .

ومن الليل فاسجد له : أي صلِّ صلاة المغرب والعشاء .

وسبِّحه : نزهه عما لا يليق به ، وقيل : صلِّ له .

ليلاً طويلاً : وقتاً طويلاً من الليل ، والمقصود : صلاة التهجد .

العاجلة : الدنيا .

يذرون : يتركون .

يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

شرح المفردات

يوماً ثقيلاً : عسيراً شاقاً ، وهو يوم القيامة .

شَدَدْنا أَسْرهُم : أحكمنا خلقهم .

تذكرة : موعظة .

اتخذ إلى ربه سبيلاً : سلك طريقاً يؤدي إلى مرضاة ربه .

تابع سُورَة الدَّهر

ويصف الله حياة الأبرار ونعيمهم في الجنة :

﴿مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الأَرائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾ .

فالأبرار يجلسون متكئين على الأرائك، والأرائك جمع أريكة، وهي السرير الذي يُرخى عليه فاخر الثياب والستور، وهم لا يرون في الجنة شمساً يؤذيهم حرها ولا ﴿زمهريراً﴾ ولا برداً شديداً يلسع أبدانهم .

والزمهرير يأتي أيضاً بمعنى القمر، أي لا يرون في الجنة شمساً ولا قمراً، وإن لهم من نورها الخاص ما يغنيهم عن ضياء هذين النيرين .

ومن مظاهر النعيم : الظلال الدانية والثمار التي هي في متناول اليد :

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَت قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ .

أي أن ظلال الأشجار قريبة منهم مظللة عليهم، وثمار الجنة سخرت لمتناولها فلا يصعب قطفها على أحد.

وبالإضافة إلى ذلك يقدم للأبرار أفخر أنواع الآنية والأكواب التي فيها ما لذّ وطاب:

﴿وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بآنيةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا. قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً﴾ .

فالآنية هي الأوعية التي يوضع فيها الطعام، وهي من فضة. والأكواب جمع كوب وهو القدح الذي لا أذن له ولا عروة، فهذه الأكواب ﴿كانت قواريرا. قواريرا من فضة﴾ والقارورة وعاء يصب فيه الشراب ويكون غالباً من الزجاج أي هذه الأكواب هي في صفاء الزجاج وشفيفها وبياض الفضة. ومعنى ﴿قَدَّروها تقديراً﴾ أي أن السقاة يقدّرون الشراب الذي يقدمونه للشاربين بحيث لا يزيد ولا ينقص عن رغبة الشاربين فيه.

ويذكر الله الشراب الذي يشربه الأبرار:

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً. عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ .

فهذه الكؤوس المملوءة بالشراب تمزج بالزنجبيل، وهو عروق نبات معروف كالقصب تمتد في الأرض، والعرب يستلذون طعمه، وهذه الكؤوس تملأ من عين جارية تسمى: (سلسبيلاً)[1] وقد سميت بذلك لشدة عذوبتها واستساغتها في الحلق.

---

(١) السلسبيل: هو ما كان في غاية السلاسة السهل المدخل في الحلق.

وزيادة في النعيم فإن الذين يحملون هذه الأواني والكؤوس هم غلمان عليهم مسحة الحسن والجمال مخلدون لا يتغيرون ولا تزيد أعمارهم، وهم في حسنهم، وانتشارهم هنا وهناك كاللؤلؤ المنثور:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾.

ويصف الله مجمل هذا النعيم:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾.

وثَمَّ: أي هناك في الجنة، والمعنى: وإذا رميت ببصرك هناك في الجنة رأيت نعيماً لا يوصف، وملكاً كبيراً مستوعباً لجميع ما يوفر على النفس راحتها وسعادتها.

كما يصف الله ثياب الأبرار وزينتهم:

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ أي تغطي أجسادهم: ثياب من الحرير الرقيق، وهو (السُّنْدُس) مخضر اللون، وثياب من حرير سميك وهي التي تسمى (إستبرق)، كما أنهم يتحلّون بأساور من فضة، وبالإضافة إلى هذا ﴿وَسَقَاهُم رَبُّهُم شَرَاباً طَهُوراً﴾، وهو الشراب الصافي البعيد عن الأدران والأضرار.

ثم يأتي النداء الرباني الذي فيه التشريف والتكريم للأبرار:

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾.

ما أمتع هذا النداء وما أعظم وقعه على المؤمنين لأن فيه منتهى السعادة لهم، ففيه يستشعرون الرضى من رب العالمين والود والقربى منه سبحانه، فعملهم كان مشكوراً من ربهم فأثابهم عليه بنعيم الآخرة.

ولما كان كفار مكة في مطلع الدعوة يحاولون صد النبي عن الدعوة ويلجأون إلى إيذائه حيناً، ومحاولة تحويله عن الدعوة حيناً آخر بإغرائه بالمال والسلطان، لذلك نرى الآيات التالية تعالج هذا الموقف:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ تَنْزِيلاً. فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثماً أَوْ كَفُوراً﴾ فالله سبحانه نزّل عليك القرآن يا محمد مفرّقاً لحكمة تقتضي تخصيص كل تشريع بوقت معين، فاصبر لقضاء الله وحكمه في من يخاصمك، ولا تطع منهم أحداً ممن يريد أن يثنيك عن هذه الدعوة، وهم ما بين منغمس في الآثام أو مستغرق في الكفر.

ولما كانت المهمة شاقة فلا بد من عون، وهنا يأتي التوجيه الإلّهي بأن العون موجود وذلك بالإلتجاء إلى الله والإكثار من ذكره والمحافظة على الصلوات، يقول تعالى:

﴿واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. وَمِنَ اللَّيْلِ فاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾.

قد يكون المراد بذكر الله ذكره سبحانه بالقلب واللسان في جميع الأوقات، وقد يكون المراد بذكر الله: الصلاة لله فيكون معنى ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار، والمراد بذلك صلاة الصبح. ﴿وَأَصِيلاً﴾ أي بعد منتصف النهار، والمراد: صلاتا الظهر والعصر. والمراد بقوله: ﴿وَمِنَ الليل فَاسْجُدْ لَهُ﴾ صلاتا المغرب والعشاء. والمراد بقوله: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَويلاً﴾ صلاة التهجد بالليل.

ثم يبيّن القرآن بأن عناد الكافرين سببه حب الدنيا والإعراض عن الآخرة:

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾.

فهؤلاء الكفار يحبون (العاجلة) وهي الدنيا، وفي تسميتها بذلك إيحاء بقصر هذه الحياة وسرعة انقضاء أيامها في عمر الإنسان، والناس في عجلة للحصول على لذاتها وشهواتها، وهم بجانب ذلك ﴿ويذرون وراءهم﴾ أي يتركون وراءهم، والمراد تركهم الإيمان وتركهم ممارسة الأعمال الصالحة التي تنجيهم في الآخرة. ﴿يوماً ثقيلاً﴾ هو يوم القيامة، ووصفه بالثقل لشدائده وأهواله.

وبعد هذا تأتي الآية الكريمة مهددة الكفار إذا استمروا على كفرهم:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾.

فليعلم هؤلاء المشركون المعتزون بقوتهم: بأن اللّه هو الذي خلقهم، ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ وهو الذي أحكم وقوى خلقهم. وهو القادر على إهلاكهم، وإبدالهم بقوم لا يماثلونهم في الكفر بل يطيعون ربهم ولا يعصونه.

ثم يبيّن اللّه بأن هذه السورة هي موعظة للذي يريد الهداية ويتخذ من الإيمان والعمل الصالح سبيلاً يؤدي إلى رضوان ربه:

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً. وما تشاؤونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

أي إن هذه السورة تذكرة لمن تذكر واتعظ ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ واتخاذ السبيل إلى اللّه عبارة عن التقرب إليه بأداء ما فرضه عليه وطاعته في أمره ونهيه. أما قوله سبحانه: ﴿وَمَا تشاؤون إلاَّ أن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فليس فيه معنى الجبر بل على الإنسان وهو يختار سبيل الهدى أن يؤمن في الوقت نفسه بقدرة اللّه المسيطرة ومشيئته الشاملة، فلا يكفي أن يسلك سبيل

الهدى ويزعم بأن له بذلك الفضل، بل يتواضع لله ويخضع له ويشكره على أن وفقه للهداية، وفي هذا تنبيه للإنسان لأن يعرف ضآلة نفسه أمام قدرة الله المحيطة بالكون ومشيئته الشاملة التي لا يقع شيء في الكون إلا وفق إرادته.

ويختم الله هذه السورة بقوله:

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ والظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

فهو سبحانه يدخل المؤمنين المهتدين جنته حسب مشيئته وتفضله عليهم وحسب استحقاقهم، كما يدخل الظالمين المكذبين دار العذاب وهي جهنم. ويمكن أن يكون الضمير في (يشاء) راجع إلى الإنسان، ويكون المعنى: يدخل الله في رحمته من يشاء الهداية من الناس ويختار طريق الإيمان. ويؤكد هذا الاتجاه ورود الفعل (شاء) قبلها مُسنداً إلى الإنسان.

التفسير العلمي

قال تعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾.

الشاهد هنا لفظ (أمشاج) ومعناه: أخلاط. والمفسرون قديماً قالوا بأن المراد بالأخلاط هو التقاء ماء الرجل وماء المرأة، ولكن القرآن جعل الأمشاج وصفاً للنطفة، والنطفة هي منّي الرجل كما جاء في القرآن[1].

فالمراد من قوله تعالى: (نطفة أمشاج) أي أن النطفة ذات أخلاط من مواد متنوعة، وهذا ما كشفه العلم بواسطة المجهر والتحاليل، مظهراً معجزة

(١) يقول تعالى: ﴿ألم يك نطفة من مني يمنى﴾.

للقرآن تشهد بأنه كلام رب العالمين.

وقد فسّر أحد الأطباء المشهورين(١) هذه الحقائق المذهلة عن محتويات نطفة الرجل فقال:

«نطفة الرجل تحتوي على العناصر التالية:

١) الحُيَيّات المنوية (السبرماتوزوييد) هذه الحُيَيّات لها شكل متطاول ومؤلفة من رأس وذيل، فالرأس يحتوي على عناصر الوراثة وهو الذي يدخل بويضة الأنثى عند التلقيح.

وهذه الحُيَيّات المنوية موجودة في النطفة بمعدل متوسط قدره: ١٠٠ مليون حية منوية بالسنتمتْر المكعب، وأحد هذه الحُيَيّات هو الذي يلقح بويضة الأنثى عند الإخصاب.

٢) السائل المنوي: وهو السائل الذي تسبح فيه الحُيَيات المنوية وتفرزه عدة غدد ثانوية، وهي: الحويصلات المنوية، والبروستات، والبربخ والأقنية الناقلة للمني. وهذا السائل له رائحة مميزة ولون (الكريم) ويحتوي على عدة نشادر معدنية، وحوامض أمينية، وسكريات خاصة (سكر الأثمار). ومعادن خاصة: (المغنزيوم، والزنك) وعدة أنزيمات خميرية كالخميرة الحالّة، والخمير النشوي، وخميرة حامض الفوسفات، وعدة عناصر أخرى كالبروستاغلاندين التي اكتشف مؤخراً».

وهكذا نرى أن العلم كشف لنا أن نطفة الإنسان تحتوي على أخلاط منوعة والقرآن سبق العلم إلى هذا الكشف العلمي حين وصف النطفة بالأمشاج: أي الأخلاط.

---

(١) هو الدكتور وليد خالد الصغير أخصائي في التوليد والأمراض والجراحة النسائية.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ

شرح المفردات

المرسلات : الرياح ، وقيل : الملائكة ، وقيل : آيات القرآن الكريم .

عُرْفاً : متتابعة ، وقيل : إفضالاً من الله .

العاصفات عصفاً : الرياح الشديدة الهبوب .

الناشرات نشراً : الرياح التي تنشر السحاب أو الملائكة التي تنشر الكتب .

فالفارقات فرقاً : الرياح التي تفرق بين السحاب أو الملائكة التي تفرق بين الحق والباطل .

فالملقيات ذكراً : الملقيات وحياً أو عظة .

عُذراً : معذرة ، والاعتذار إلى الخالق بما يمحو الذنب .

نُذراً : منذرة ومخوفة من العقاب .

ما تُوعَدونَ : ما وعدكم الله به وهو يوم القيامة والحساب .

لواقع : لكائن لا محالة .

النجوم طُمست : ذهب ضوؤها .

السماء فُرجت : انشقت .

﴿٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٥ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٩ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٢٤ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ٢٧ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٢٨ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ﴾

شرح المفردات

الرسل أُقتت : عُيّن لها الوقت الذي تحضر فيه للشهادة على الأمم .

لأي يوم أُجّلت ؟ : استفهام للتعظيم ، اي لأي يوم أخرت محاسبة الأمم ؟ .

ليوم الفصل : يوم القيامة حيث يفصل الله فيه بالحق بين الناس .

وَيْل : كلمة تقال لكل من وقع في عذاب أو هلاك يستحقه ، وقيل : الويل واد في جهنم

ألم نُهلك الأولين : ألم يعاقب الله الأمم السابقة الذين كذبوا أنبياءهم .

ثم نُتبعهم الآخرين : ثم نُلحق بالأولين في الهلاك من جاء بعدهم من الكافرين .

ماء مهين : منيّ ضعيف قليل.

قرار مكين : مكان يتمكن فيه ، وهو رحم المرأة .

قَدَرٍ معلوم : زمن معين ، وهو وقت الولادة .

فقَدَرْنا : أي قدرْنا على خلقه وتصويره كيف شئنا .

كِفاتاً : الكفت هو الضم ، أي تضم أهلها أحياء على ظهرها وأمواتاً في باطنها .

رواسي شامخات : جبالاً ثوابت مرتفعات .

ماء فراتاً : ماء عذباً .

مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ
وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ
صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾
وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ
ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ
مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ

شـرح المفـرَدات

ظل : هو دخان جهنم .

ثلاث شعب : ثلاث فرق .

لا ظليل : لا مُظَلِّل من الحر .

ولا يُغني من اللهب : ولا يَرُدُّ عنهم لهب جهنم .

إنها : أي جهنم .

بشرر : جمع شررة ، وهي ما تطاير من النار .

كالقصر : في حجم القصر ، وقيل : القصر جمع قصرة ، وهو الحطب الضخم .

جِمَالة صُفْرٌ : الجمال السود الضارب لونها إلى الصفرة .

كَيْد : حيلة لاتقاء العذاب .

فكيدون : فاحتالوا للتخلص من العذاب ، وقيل : حاربوني وقاوموني .

عيون : جمع عين ، وهي منبع الماء .

هنيئاً : خالص اللذة لا يشوبه تنغيص .

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

شَرح المفـردَات

نجزي : نثيب ونكرم .

اركعوا : صلوا .

سُورَة المُرسَلات

إيضاح ودروس

هذه الســورة يتلخص مضمونها بالتأكيد على حصول يوم القيامة، وما فيه من أهوال، وبالتهديد لمن يكذب بهذا اليـوم، وبتكرار ذلـك التهديـد عشر مرات، مع البشرى للمتقين بما سَيَلْقَونه من الرفاهية والنعيم.

واللّه سُبحانه يُقْسِمُ في مطلع هذه الســورة بأمور على أن ما وعد الناس بمجيء يوم القيامة هو واقع لا ريب فيه.

﴿وَالْمُـرْسَلاَتِ عُـرْفاً[1]. فَـالْعَاصِفَـاتِ عَصْفاً. وَالنَّـاشِـرَاتِ نَشْـراً. فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً. فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً. عُذْراً أَوْ نُذْراً. إنَّ مَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾.

هذه الأمور المقســم بها اختلف المفسرون في حقيقة مدلولها، ونذكر بعض ما قيل فيها: ﴿وَالْمرسَلاَت عُرْفاً﴾ أي قسم بالـرياح المـرسلات التي

---

(١) عُرْفاً: مأخوذة من عرف الفرس وهو الشعر المتدلي على رقبة الفرس، ويكون هذا الشعر مرسلاً متتابعاً، أو أن عُرفاً مأخوذة من المعروف والفضل.

يتبع بعضها بعضاً، وقيل: قسم بآيات القرآن المتتابعة النزول على محمد بكل عرف وخير، أو الملائكة التي ترسل بأمر الله ونهيه ﴿فَالعَاصِفَاتِ عَصْفاً﴾ أي الرياح الشديدة الهبوب، أو المراد بذلك آيات القرآن التي تعصف بالقلوب بما ذكرته من الوعيد ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً﴾ هي الرياح التي تنشر السحاب وتأتي بالمطر، وقيل هي آيات القرآن الناشرات الهداية والحكمة في قلوب الناس. ﴿فَالفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾ قيل هي آيات القرآن التي تفرق ما بين الحق والباطل، أو الرياح التي تفرق السحاب وتبدّده ﴿فَالملقِيَاتِ ذِكْراً﴾ قيل هي الملائكة التي تبلغ وحي الله إلى رسله من البشر ﴿عُذْراً﴾ أي للإعذار بمعنى إزالة أعذار الخلق لئلا يبقى لهم حجة عند الله أو ليعتذروا إلى الله بتوبتهم ﴿أو نُذْراً﴾ أي للإنذار والتخويف بالعقاب عند العصيان.

ولكن على أي شيء أقسم سبحانه؟ أقسم على أن ما وعد به المشركين من مجيء يوم القيامة والثواب والعقاب هو واقع لا محالة.

وعندما أكدت الآيات أن يوم القيامة سيقع لا محالة ناسب ذلك أن تنقل مشهداً مرعباً من مشاهد ذلك اليوم:

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ. وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ. وَإِذَا الجِبَالُ نُسِفَتْ. وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ. لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ. لِيَوْمِ الفَصْلِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفَصْلِ﴾.

فالنجوم يذهب ضوؤها، والسماء تتشقق أجرامها، والجبال تُقْتَلع من أصلها وتتفرق أجزاؤها، والرسل يُعيّن لهم الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم، ولكن لأي يوم أُخرت هذه الأمور العظيمة؟ إنها أُخرت ﴿لِيَوْمِ الفَصْلِ﴾، أي يوم القضاء الفصل، حيث يفصل الله فيه بين

الخلائق فيجزي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل أي ما أعلمك أيها الإنسان مقدار هوله وشدته فهو أعظم من أن يحيط به عقل.

وبعد أن بيّنت الآيات مشهد الهول والرعب في ذلك اليوم فكأن سائلاً يسأل: ما مصير المكذبين بذلك اليوم؟ فجاء الجواب سريعاً فاصلاً: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك لأولئك المكذبين بيوم الجزاء ونبوة محمد. وقد تكررت هذه الآية عشر مرات، ذكرها الله عقب عشرة مشاهد يلفت فيها النظر إلى أمر خطير في الكون، أو في تاريخ الأمم، أو في نشأة الإنسان، أو مصير الناس يوم القيامة إما إلى نعيم أو عذاب. فالله إذ ذكّر الناس بنعمة، أو خوّف بنقمة، أكد التذكير والتخويف بذكر الويل للمكذبين الذين استخفُّوا بهذه النعمة، أو تهاونوا بتلك النقمة، فيكون ذلك زاجراً لهم عن التمادي في التكذيب. وتكرار جملة واحدة وإعادتها مراراً في خلال الكلام الواحد مألوف للعرب، ومعهود في خطبهم وأشعارهم.

ثم ينتقل القرآن بنا إلى التأمل في مصير الأمم السابقة التي أصابها الهلاك بسبب عصيانها أوامر رسلها:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ. ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ. كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

فالله يقول: ألم نهلك الأمم الماضية الذين كذبوا رسلي وجحدوا بآياتي كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم. ثم نتبعهم الآخرين بعدهم بالهلاك ممن كانوا مثلهم في التكذيب والعصيان كقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين، وما فعلناه بالأمم السابقة نفعله في كل أمة تسلك مسلكهم في الإعراض عن الحق إلى الطغيان والبغي.

ثم يوجه القرآن النظر إلى أصل الخلقة الإنسانية التي تشهد بالقدرة الإلّهية تلك القدرة التي لا يعجزها إعادة الإنسان حيًّا بعد الموت:

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ﴾.

والماء المهين هو ماء الرجل (المنيّ) وقد وصفه الله بالمهين بمعنى القليل الضعيف، هذا الماء يحتوي على الملايين من الحيّات إحداها يلتحم مع بويضة المرأة فتكوِّنُ النواة الأولى للجنين ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرارٍ مكين﴾ أي جعله الله في مكان ثابت مستقر وهو رحم المرأة، ووصفه بالمكين هو وصف بغاية الدقة للحالات الأولى لتكون الجنين فيه من حيث الاستقرار بوضع محكم، ونظام ثابت يحفظه من الفساد والتغيّر، ويهيئه لقبول التطورات المختلفة حيث يصبح جنيناً. والمدة التي يمكثها في الرحم قُدرت بوقت معيّن ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ لا يتعداه ثم يُولد بشراً تام الخلقة. ثم يعقب الله على ذلك قوله: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ﴾ أي أنه سبحانه قدّر المدة المحددة لنشأة الجنين في الرحم والتطورات التي يتقلب فيها، فنعم صاحب هذه القدرة الجدير بالحمد والثناء والعبادة.

ويلفت القرآن الأنظار إلى الأرض وما أودع الله فيها من جبال ومياه:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً. أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً. وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ﴾.

فالأرض جعلها سبحانه ﴿كِفَاتاً﴾ أي ضامة جامعة، فهي تضم الأموات في بطنها، وتضم الأحياء على ظهرها، هذا التعبير بالضم للأحياء هو ما يطلق عليه في أيامنا هذه: قانون الجاذبية الذي بموجبه تجذب الأرض

إليها ما على ظهرها من البشر والدواب وسائر الأشياء، ولولا ذلك لطاروا وتبددوا في الفضاء بسبب حركة الأرض اليومية حول نفسها بسرعة فائقة، فالأرض تضم الأحياء إليها ولا تدعهم يتفلتون منها.

ومن نِعَم اللّه على الإنسانِ خلقه الجبال المرتفعات ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ ثم انظر كيف عَقّب اللّه على ذلك قوله: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُراتاً﴾ وذلك لما للصلة بين الماء العذب والجبال، فالجبال هي مستودعات للمياه إذ ينزل عليها الثلج فيبقى في ثناياها حافظاً لشراب الناس يذوب بالتدريج فتسيل منه عيون الماء العذبة.

ثم تخبر الآيات التالية عن المصير الرهيب الذي ينتظر المكذبين بدين اللّه:

﴿إنْطَلِقُوا إلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ. إنْطَلِقُوا إلَى ظِلٍّ ذي ثَلاثِ شُعَبٍ. لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ. إنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

أي يقال للكفار سيروا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب النار فقد شاهدتموها عياناً ﴿انطلقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاث شعب﴾ فالظل هو دخان جهنم وهو متشعب لعظم اللهب المختفي وراءه إلى ثلاث فرق ﴿لا ظليلٍ ولا يُغني من اللهب﴾ لا هو يظلل من يكون تحته ويقيه شدة الحر كما هو طبيعة الظلال كلها، ولا هو أيضاً يقيهم من ألسنة النار المندلعة إليهم من كل جانب، وقد سمى اللّه العذاب ظلاً للتهكم والاستهزاء بالمكذبين ﴿إنَّها ترمي بشَرَرٍ كالقصْر﴾ أي هذه النار يتطاير منها شرر كل شرارة كالقصر، والقصر وإن كان يطلق في اللغة على هذا النوع من المساكن الشامخة فإنه

يطلق على كل بيت من حجر ولو كان صغيراً، كما يطلق على أصول النخل والشجر ﴿كأنه جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ وهي الجمال السود الضارب لونها إلى الصفرة.

لقد شبه القرآن الشرر حين ينفصل من النار بالقصر أو أصول النخل والشجر، وحين يأخذ في الإنبساط والتشعّب عن أعداد غير محصورة شبهه بالجمال الصفر، والآيات إذ تستعمل هذا التشبيه فإنها تراعي الذهنية العربية وتخاطبهم بما هو مألوف لديهم، فقد كانت قرى العرب منتشرة بيوتها هنا وهناك، يتخللها ويسرح في كل جانب من جوانبها جمال مصفرة اللون. فالقرآن الكريم أراد أن يصور هول النار بتصوير شررها، فالشرر يكون متناسباً مع قوة النار.

ويتابع القرآن فيصف الحالة النفسية للمكذبين يوم القيامة:

﴿هَـذَا يَـوْمُ لا يَنْـطِقُـونَ. ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَـذِرُونَ. وَيْـلٌ يَـوْمَئِـذٍ لِلْمُكَذِّبينَ﴾.

فيوم القيامة لا ينطق فيه المكذبون لشدة هوله، ولا يجرؤون فيه على الكلام، ولا يؤذن لهم في أن يعتذروا عن تصرفاتهم لأن الوقت ليس للإعتذار بعد أن دعاهم الله إلى سبيل الخير فاختاروا سبيل الضلال.

ثم تتابع الآيات مبينةً أن يوم القيامة هو يوم القضاء بين العباد، وأن الحيل لا تنفع في ذلك اليوم:

﴿هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ. فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْـدٌ فَكِيدُونِ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

فيوم القيامة هو يوم الحكم الفصل، وفيه يحكم الله بالحق بين الخلائق، وفي هذا اليوم يجمع الله المكذبين من هذه الأمة بالنبي محمد ﷺ

كما يجمع الذين كذبوا أنبياءهم من الأمم الماضية للحكم على أعمالهم، ويُقال لهؤلاء المكذبين: ﴿فإن كان لكم كيْد فكيدونِ﴾ أي إن كانت لكم حيلة ودهاء للنجاة من هول ذلك اليوم ومن عذاب اللّٰه فاحتالوا وأنقذوا أنفسكم من بطش اللّٰه وانتقامه، ولكن هيهات فإن الحيل لا تنفع يومئذٍ. وإن عذاب اللّٰه واقع بهم.

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى وصف التكريم الذي أعدّه اللّٰه للمتقين:

﴿إِنَّ المُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ. وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

فالمتقون تظللهم الأشجار الوارفة، وهم في راحة وغبطة، قريبون من عيون الماء، يرتشفون منها متى شاءوا، ولهم أيضاً فواكه مما يشتهون، وفيما هم في هذا النعيم يأتيهم النداء العلوي: ﴿كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بما كُنْتُمْ تَعْمَلُون﴾ هذا القول يحتمل أن يكون مباشرة من اللّٰه بلا واسطة، وما أعظمها من نعمة وتكريم وفضل، أو يكون هذا القول من جهة الملائكة على سبيل التكريم؛ ثم يعقب اللّٰه على ذلك قوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ﴾ أي كما جزى اللّٰه المتقين بما ذُكِرَ من أنواع النعيم، كذلك يجزي ويثيب كل محسنٍ متقٍ محارم اللّٰه مطيعٍ أوامره.

ثم تعود الآيات إلى مخاطبة المكذبين المنغمسين في ملذاتهم:

﴿كُلوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

فاللّٰه سبحانه يقول لهم: كلوا في هذه الدنيا ما شئتم من صنوف

الطعام، وتمتعوا بما يروق لكم من مشتهيات الحياة، هذا التمتع هو قليل لا يدوم، ومن كان هذا كل همه من الحياة صرفه ذلك عن قِيَمِ الروح وعن تطهير نفسه من المآثم، فكان بذلك في مصاف المجرمين المستحقين للعقاب.

وأخيراً يختم اللّٰه هذه السورة بتوجيه اللوم للمكذبين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكعون. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِين. فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يؤمِنُونَ﴾ فالركوع المراد به الخضوع للإسلام، أو المراد به الصلاة لأن من أركانها الركوع وهو الانحناء المعروف، فالمكذبون إذا قيل لهم صدِّقوا وآمنوا بما أنزل على محمد ﷺ وصلُّوا للّٰه لا يمتثلون ولا يستجيبون.

وإذا كانوا لا يؤمنون بعد كل هذه البينات إذن فإنهم لن يؤمنوا قط بأي بينة أخرى ﴿فَبِأَيِّ حديثٍ بَعْدَهُ يُؤمِنُونَ﴾ فلا حديث ولا كتاب سماوي يبلغ محتوى ما اشتمل عليه القرآن من الهدى ووضوح الحجة.

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
التفسير الكبير للفخر الرازي .
لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين البغدادي المعروف بالخازن .
فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني .
تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي .
تفسير القرآن العظيم لابن كثير .
تفسير أبي السعود للقاضي أبي السعود محمد العمادي .
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني .
روح المعاني للألوسي .
تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي .
صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين مخلوف .
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة .
تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي .
في ظلال القرآن للأستاذ سيِّد قطب .
سُوَر الرحمن وسور قصار للدكتور شوقي ضيف .
تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .
صفوة التفاسير للأستاذ محمد علي الصابوني .

الفهرس

شكر واعتراف بالجميل

وفي الختام أقدم شكري للأساتذة الكرام:

الشيخ حسين غزال
الشيخ خليل الميس
الشيخ شريف سكر
مصطفى قصاص

على ما أبدوه لي من معونة وملاحظات قيمة.

لهؤلاء جميعاً أسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء وأن يوفقنا سبحانه لخدمة كتابه الكريم، إنه سميع الدعاء.

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية
- روح القرآن
- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر : الكهف ـ مريم ـ طّه
- تفسير سُوَر : الحجر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر : يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة الأنعام

هَذَا التَّفْسِيرُ

- يعَرِضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحَاضر .
- يعُالج التفسير بطريقَةٍ مبسَّطة بعَيدة عن التطويل المملّ وَالإيجاز المخلّ .
- ينتقي أرجَح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغة .
- يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه .
- يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجَميع .
- يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصّل في آياتٍ أخرى .



دراسات إسلامية
ISBN 9953-9-0496-0
9 789953 904962 2

الموزعون الوحيدون:
دَارُ العِلمِ لِلمَلايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥